

٥٧

سلسلة  
التصوير  
الإسلامية



# شُبَّهَاتُ حَوْلَ الْإِسْلَامِ

د / محمد عماره



فِي التَّنْوِيرِ الْإِسْلَامِ

٥٧

# شِبَهَاتُ حَوْلِ الْإِسْلَامِ

تأليف

د. محمد علاء



الطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى طبعة موسوعية سنة ١٤٢٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



اسم الكتاب:	شهادات حول الإسلام
اسم المؤلف:	د. محمد عمارة
اشراف عام:	داليا محمد إبراهيم
تاريخ النشر:	يناير ٢٠٠٢
رقم الإيداع:	٢٠٠١ / ١٧٧٨٣
الترقيم الدولي:	I. S. B. N 977 - 14 - 1654 - 5
النادرة:	دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع
المركز الرئيسي:	٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة مدينة السادس من أكتوبر
مركز التوزيع:	١٨ ش. كامل صدقى - الفجالة - القاهرة. ت: ٥٩٠٨٨٩٥ - ٥٩٠٨٨٢٧ فاكس: ٤/٥٩٠٣٣٩٥
الادارة العامة:	ص. ب: ٩٦ الفجالة - القاهرة. ٢١ ش. أحمد عرابى - المهندسين - الجيزة ت: ٣٤٦٦٤٣٤ - ٣٤٧٧٢٨٦٤ فاكس: ٢/٣٤٦٢٥٧٦
ص. ب:	٢٠ امية

## تقديم

هذه سبع شبهات ، طلب مني الإجابة عليها «مكتب القاهرة» موقع «Islam On Line» على شبكة المعلومات العالمية «الإنترنت» . . وهي شبهات يبعث بها ، طلباً للإجابة عنها ، والكشف عن حقائقها «مجموعة من طلبة الدكتوراه العرب الدارسين في بريطانيا . . والذين التقوا بمجموعة من الشباب المسلمين ، من جنسيات عربية وأخرى آسيوية ، يتبنون «فكرةً جديداً» هدفه «التجديد ومقاربة الدين الإسلامي بالعصر» ويقول أصحاب هذا الفكر : «إنهم لا ينتمون للعلمانية أو إلى أى تيار مثل تيار التغرب الذي انبهر أهله بتلقى الحضارة الأوروبية» .

ويقول السائلون - طلبة الدكتوراه - عن أصحاب هذه الشبهات : «إن أكثرهم ، وخاصة الآسيوبيين منهم ، قد ولدوا ونشؤوا في بلاد الغرب ، ولا ينتمون لأوطانهم الأصلية لا من قريب ولا من بعيد . . .» .

ويعرف السائلون بأنفسهم - فكرييا - فيقولون : «وحيث إننا نعتبر أنفسنا من الداعين إلى التجديد ، على الطريق الذي يسير عليه كثير من رواد تجديد الفكر الإسلامي ، أمثال الدكتور محمد سليم العوا والدكتور محمد عمارة وغيرهم كثير والحمد لله ، هؤلاء

هم أساتذتنا الذين نفخر بهم ونخلهم ونعتبرهم فادتنا إلى المستقبل  
المشرق بإذن الله .

إننا نؤمن بأن تجديد الفكر الإسلامي سنة من سنن الله ، وأنه  
يجب أن يكون دائم الفعل على مر العصور ، وأن مبدأنا هو كما  
يقول الدكتور محمد عمارة : « إن عقلانيتنا الإسلامية المتميزة قد  
وازنت بين الحكمة وبين الشريعة ، وتأخى فيها العقل والنقل  
لهدية الإنسان » .

وإذ نحن نكتب إليكم هذه الرسالة نطلب منكم النصح  
والإرشاد ، أملين من الله - تعالى - أن تستجيبوا لمساعدتنا وإبداء  
الرأي حول هذا الفكر الجديد الذي جعلنا في حيرة من أمرنا ..

\* \* \*

أما الشبهات السبع - التي وردت بالسؤال - فمنها ثلاثة حول  
لقرآن الكريم :

الأولى: في التشكيك بحفظ الله للقرآن .

والثانية: حول تاريخية وتوقيت وتجاوز الواقع المتظور لأحكام  
آيات القرآن .

الثالثة: حول الحروف والكلمات التي جاءت فواع لبعض سور  
القرآن الكريم - من مثل (ألم) و (حم) ..

ومن هذه الشبهات اثنان حول رسول الله - ~~رسول~~ - :

الرابعة: حول عصمته .

الخامسة: حول الأحاديث النبوية .

والشبيهة السادسة: حول موقف العقل من النقل .

أما السابعة - والأخيرة - فهي حول البيروك ومعاملات النظام المصرفي المعاصر ..

وكما أوردنا سؤال السائلين بتصه ، فإننا نورد كل شبيهة ينصلها - كما جاءت في السؤال - ثم تتبع ذلك بالجواب .. الذي حاولنا فيه الاحتكام إلى ما يميل للاحتجاج به والاحتكام إليه أصحاب هذه الشبهات ..

وهذا منهاج في الحوار علمنا إياه رسول الله - ﷺ - عندما قال : «أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم ... وعلمنا إياهم أسلافنا - من البلاغيين - عندما عرّفوا البلاغة بأنها مراعاة مقتضي الحال ..

إن عظمة الإسلام تتجلّى في سطوع حجته عن طريق مختلف ألوان الاستدلال والحجاج .. فهو دين الفطرة الذي تشع أنواره على الفطر الإنسانية السوية دائمًا وأبدا .. وهو دين العقل الصريح ، حتى لقد قال فلاسفته بإمكان وصول العقل الصريح إلى «شريعة عقلية» موافقة لمقاصد الشريعة الإسلامية التي شرعها الله - سبحانه وتعالى - وأوحى بها إلى رسوله - عليه الصلاة والسلام ..

والإسلام - كذلك - دين النقل ، الذي تميز بالحفظ والإعجاز . . .  
ثم هو الدين الذي تشهد آيات الكون المنظورة لآيات وحية  
المسطورة بين دفتي القرآن الكريم . . .

وإذا كان واجب العلماء - الذي ورثهم إيهـ الأنبياء - هو تبليغ  
الدعاوة الإسلامية . . . وإقامة الحجـة على صدقها . . . وإزالة الشبهات  
المشارـة من حولها . . . فإنـا نرجـو أن تكون هذه الصفـحـات قـياماً  
بعـض هذا الـواجب . . . واسـهـاماً فـي فـريـصـةـ المـرابـطـةـ عـلـىـ ثـغـورـ  
الـإـسـلـامـ . . .

وـالـلـهـ نـسـأـلـ أـنـ يـنـفـعـ بـهـاـ . . . وـأـنـ يـتـقـبـلـهاـ خـالـصـةـ لـوـجـهـهـ الـكـرـمـ . . .  
إـنـهـ سـبـحـانـهـ وـتـعـالـىـ . . . أـفـضـلـ مـسـئـولـ وـأـكـرمـ مـجـيبـ .

دكتور  
محمد عمارة

## الشَّبَهَةُ الْأُولَى: حَوْلَ حِفْظِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

١٠٠ هم لا يؤمنون بأن القرآن قد حفظ ، كما تقول الآية الكريمة  
﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الْذِكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ويقولون : قد يكون الذكر  
جزءاً من القرآن ، وليس كله ، ويستدللون بكلام لعمر بن الخطاب ،  
رضي الله عنه ، بأنه أقسم على أن هناك آية في القرآن تتحدث عن الرجم  
- وهذه الآية غير موجودة - وأن غنمة أكلت ورقة من القرآن كانت  
بيد عائشة - رضي الله عنها - . . . .

الجواب:

وفي الجواب عن هذه الشبهة نسأل :  
لماذا يبعث الله - سبحانه وتعالى - الرسال وأنزل الكتب؟  
لقد كان ذلك رعاية من الله خلقه .. ولطفاً بهم .. وحتى يكون  
حسابه لهم - كي لا يتساوى الحسن والمسوء - وجزاؤه إياهم على  
أفعالهم عدلاً إلهياً خالصاً .. ﴿وَإِنْ مَنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَّ فِيهَا نَذِيرٌ﴾  
فاطر : ٢٤ - ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ الإسراء : ١٥  
- ﴿إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حِجَةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ النساء : ١٦٥  
وقبل ختم النبوة والرسالة كانت مهمة حفظ كتب الرسالات

والشرائع موكولة إلى أئم هذه الرسالات ، كجزء من التكليف لهم والاختبار لاستقامتهم في هذا التكليف ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا الْتُّورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَخْبَارُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شَهِداءَ فَلَا تَخْشُوا النَّاسَ وَاخْشُونَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكُ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ المائدة : ٤٤ - . . لكنهم فرطوا في القيام بتكليف الحفظ للكتب - بالتسبيhan حينما وبالتحريف والإخفاء حينما آخر - ﴿فِيمَا نَقْضُهُمْ مِّثْقَلُهُمْ لَعْنَاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ فَاسِيَّةً يُحِرِّفُونَ الْكَلْمَ عنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظَّاً مَّا ذَكَرُوا بِهِ وَلَا تَرَالْ نَطْلَعُ عَلَى خَانَةِ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفُحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣) وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِثْقَلَهُمْ فَسُوَّا حَظَّاً مَّا ذَكَرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَعْضَاءِ إِلَيْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسُوفَ يَبْئِسُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١٤) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يَبْيَنُ لَكُمْ كَثِيرًا مَّا كُنْتُمْ تُخْفِونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مِنْ أَنْبَعِ رَضْوَانِهِ سَبِيلَ السَّلَامِ وَيَخْرُجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ المائدة : ١٣ - ١٦

وعندما كانوا يحرفون هذه الكتب ، أو ينسون بعضها ويتحفون البعض الآخر ، كان الله يبعث رسولاً جديداً بكتاب جديد ..

اما عندما اراد الله - سبحانه وتعالى - مع بلوغ الإنسانية سن الرشد - ختم النبوات والرسالات بنبوة ورسالة محمد - عليه فكان لابد لحفظ كتاب الشريعة الخاتمة من حافظ لا يجوز عليه الاهمال ، ولا يتأنى منه التحرير ، ولا يليق به التسيان .. اي كان لابد من الحفظ المقصوم الدائم للكتاب المعجز الخالد .. لأن ترك حفظ الكتاب الخاتم للبشر ، الذين يجوز عليهم الإهمال والتحرير والتسيان معناه طرء وحدوث التحرير والضياع لهذا الكتاب ، حيث لا وحي سينأى ولا رسول سيعث ولا كتاب سينزل ..

الأمر الذي لو حدث - افتراضاً - سيضل الناس ولا رعاية لهم ، ولا حجة عليهم ، تجعل من حسابهم وجرائمهم عدلاً إلهياً مناسباً ..

ولذلك ، انتقلت مهمة حفظ الوحي الخاتم - القرآن الكريم - في الرسالة الخاتمة ، إلى الله سبحانه وتعالى ، الذي لا يختلف حفظه أبداً ، بعد أن كانت هذه المهمة في الرسالات السابقة ، استحفاظاً من الله للناس ، أى طلباً منه لهم أن يحفظوا ما أنزل عليهم من الكتاب .. فكان الوعد الإلهي المؤكد ﴿إِنَّا نُحْنُ نَرْزِقُنَا الذِكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ الحجر : ٩ - .

ولذلك ، هيأ الله لتدوين القرآن الكريم من كتبة الوحي مالم يتھيأ لكتاب سابق .. وجعل جمعه وعداً إلهياً وإنجازاً ربانياً ﴿لا تُحرِّك به لسانك لتعجل به (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقُرْآنُهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ القيامة : ١٦ - ١٩  
فكان الحفظ للقرآن - كل القرآن - وعداً إلهياً ، وإنجازاً ربانياً ، وذلك حتى تستمر حجة الله على عباده ، ويكون حسابة لهم عدلاً خالصاً .

\* \* \*

ولم يقل أحد ، ولا جائز في العقل - فضلاً عن النقل - أن يقال : إن الذكر ، الذي تعهد الله بحفظه ، هو بعض القرآن ، وليس كل القرآن .. لأن ضياع أي جزء من القرآن إنما يعني تخلف رعاية الله خلقه ، وسقوط حجته على عباده .. ثم إن القرآن لا يقف بالحفظ عندما يطلق عليه الذكر ، فضلاً عن أن مصطلح الذكر إنما يشمل كل القرآن .. تشهد على ذلك الآيات الكثيرة في كتاب الله .. فالمزاد بالذكر القرآن .. كل القرآن .. والكتاب .. كل الكتاب - وليس بعده - بدليل قول الله - سبحانه - : ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ - الأتبياء : ٧ - أى أهل الكتب السابقة .. والله يشير إلى القرآن والتنزيل - أى كل ما نزل به الوحي - بلغظ الذكر

﴿أو عجّبتم أن جاءكم ذكرٌ من ربكم على رجلٍ منكم ليُنذركم﴾ -  
الأعراف : ٦٩ - ... ﴿وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك  
لمجنون﴾ - الحجر : ٦ - ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما  
نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾ - التحليل : ٤٤ - ﴿ وهذا ذكر مبارك  
أنزلناه أفالتم له منكرون﴾ - الانبياء : ٥٠ - ﴿إن هو إلا ذكر  
وقرآن مبين﴾ يس : ٦٩ - ﴿ وإن يكاد الدين كفروا ليزلفونك  
بابصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون﴾ (١) وما هو إلا  
ذكر للعالمين﴾ - القلم : ٥٢ . والذكر هو كل ما جاء به  
الوحى ، فالوحى هو الذكر ﴿فاستمسك بالذى أوحى إليك إنك  
على صراط مستقيم﴾ (٢) وإن لذكر تلك ولقومك وسوف تسائلون﴿  
الزخرف : ٤٣ - ٤٤ - بل إن سياق آية «إنا نحن ننزلنا الذكر»  
شاهد على أن الذكر والقرآن والكتاب هو الوحى ﴿الر تلك آيات  
الكتاب وقرآن مبين﴾ ﴿وما أهلتنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم﴾  
﴿وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾ ﴿إنا نحن  
نزّلنا الذكر وإنما له لحافظون﴾ - الحجر : ١، ٤، ٦، ٩ .

ثم إن القرآن الكريم يؤكد أن الحفظ ، ونفي الشك والريبة إنما هو  
لكل القرآن ولجميع التنزيل ، وليس لبعض القرآن ﴿ذلك الكتاب

لَا رِبْ فِي هَذِي لِلْمُتَقِّنِ ﴿٢﴾ - الْبَقْرَةُ : ٢ - ﴿تَزَبَّلُ الْكِتَابُ لَا رِبْ فِي هَذِي لِلْمُتَقِّنِ﴾ - رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ - السَّجْدَةُ : ٢ - .. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ - الْبَقْرَةُ : ١٧٦ - ﴿نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مَصْدِقًا لِمَا بَيْنَ يَدِيهِ﴾ - آلُ عُمَرَانَ : ٣ - ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾ - النَّاسُ : ١٠٥ - ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مَصْدِقًا لِمَا بَيْنَ يَدِيهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمَهِيمِنًا عَلَيْهِ﴾ - المَائِدَةُ : ٤٨ - ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ - الْأَنْعَامُ : ٣٨ - .. وَلَوْ صَاعَ شَيْءٌ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ - أَيُّ الْقُرْآنِ وَالْتَّبْرِيلِ - لَخَدَثَ التَّفَرِيطُ الَّذِي تَنْفِيَهُ هَذِهِ الْآيَةُ ، وَلَا تَنْفَتُ حَجَةُ اللَّهِ عَلَى الْبَشَرِ ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَأَنْقُوا لَعْلَكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (١٥٥) أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كَنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَا أَنْزَلْتُ عَلَيْنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدِيَ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيْنَهُ مِنْ رِبِّكُمْ وَهُدِيَ وَرَحْمَةً ﴿١٥٥﴾ - الْأَنْعَامُ : ١٥٥ - ١٥٧ - .. فَحِجَّةُ اللَّهِ عَلَى النَّاسِ - بَعْدَ خَتْمِ الْوَحْى بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ - تَنْتَفِي وَتَسْقُطُ إِذَا حَدَثَ جَهَلٌ بِشَيْءٍ مِمَّا أَنْزَلَ فِي الْكِتَابِ .. الْقُرْآنُ - ﴿وَمَا أَهْلَكَنَا مِنْ قَرِيبَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مُعْلَمٌ﴾ - الْحَجَرُ : ٤ - .. وَلَوْ أَنَّ الْقُرْآنَ ضَاعَ مِنْهُ شَيْءٌ لَتَخَلَّفَ وَعْدُ اللَّهِ بِتَنْزِيلِ تَبْيَانِ كُلِّ شَيْءٍ فِيهِ ، لَتَنْتَمِ شَهَادَةُ

الرسول - ﷺ - على أمنته ﴿ وَيَوْمَ نُبَعِثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجَئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هُؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ - النَّحْلُ : ٨٩ -

وختتم النبوة والرسالة ، يعني انتفاء بعث رسول جديد ، ونزول كتاب جديد .. وحتى تقوم حجة الله على عباده لا بد من بقاء القرآن كله محفوظاً ، ليكون فيما على الناس ، أى دائم القيام على هدايتهم وإرشادهم ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عَوْجًا ﴾ (١) فيما ليذر بأسا شديداً من لدنـه ويشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرًا حسناً ﴿ - الْكَهْفُ : ٢٤، ١ ﴾

وإذا كان الكتاب هو كل القرآن ، فلقد وعد الله - سبحانه - بأن يحفظه ويورثه للذين اصطفاهـم من عبادـه ، بعد أن أنزلـه على المصطفـى من رسـله ، وجمعـه وقرأـه ﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنْ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدِيهِ إِنَّ اللَّهَ يَعْبُدُهُ لَخَيْرٌ بَصِيرٌ ﴾ (٢)

(٣) ثم أورثـنا الكتابـ الذين اصطفـينا من عبادـنا فـ منهم ظـالم لنفسـه وـ منهم مـقتـضـد وـ منهم سـاقـ بالـ خـرـاتـ يـاذـنـ اللهـ ذـلـكـ هـوـ الفـضلـ الكبيرـ ﴿ - فاطـرـ : ٢١ - ٢٢ ﴾

ومن صفات القرآن - كل القرآن - أنه كتاب عزيز ، أى منيع ، محفوظ من العبث به وفيه .. وأنه ممتنع عن الإبطال ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، بأى حال من الأحوال ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْدُّكْرِ لِمَا جَاءُهُمْ وَإِنَّهُ لِكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ (١) لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تربيل من حكيم حميد ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْدُّكْرِ لِمَا جَاءُهُمْ وَإِنَّهُ لِكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ (٢) - فصلت : ٤١ ، ٤٢ ، .. والذكر في هذه الآية هو كل الكتاب ، العزيز على أى عبث به وفيه ..

ومن صفات القرآن - كل القرآن - أنه كتاب على حكيم ، فوق تطاول المطأولين ، بشراً كانوا أو أزمنة ودهوراً ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّعِلْكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٣) وإنه في أم الكتاب لدينا لعلٍ حكيم ﴿إِنَّهُ لِكِتَابٌ لَدِينَا لَعَلَّيْهِ حَكِيمٌ﴾ (٤) - الزخرف : ٣ ، ٤ ..

ومن صفات القرآن - كل القرآن - أنه في كتاب مكتوب ، أى مصون ومحفوظ عن اللعب والعبث والتحريف ﴿إِنَّهُ لِقُرْآنٍ كَرِيمٍ﴾ (٥) في كتاب مكتوب ﴿إِنَّهُ لِقُرْآنٍ كَرِيمٍ﴾ (٦) - الواقعة : ٧٧ ، ٧٨ ..

ولقد صدق التاريخ على هذا الحفظ الإلهي لهذا القرآن المجيد .. ومن يقرأ تاريخ التوراة - حتى ذلك الذي كتبه علماء اليهودية - يعلم ما أصابها بعد ستوات من تزولها .. وكيف أعيدت كتابة أسفارها على النحو الذي صنعه «عزرا» - «عزيز» - وغيره من الأخبار ، في صورة مليئة بالتحريف .. ومن يتأمل تناقضات

الأنجيل - حتى الشهيرة منها - والفرق الجوهرية بينها وبين غير الشهيرة - من مثل أناجيل «مخخطوطات نجع حمادى» ، و«مخخطوطات البحر الميت» و«إنجيل برنبابا» يعلم ما أصاب الإنجيل بعد سنوات معدودة من بعثة المسيح ، عليه السلام .. لكن .. ها هو القرآن الكريم كما نزل به الروح الأمين على قلب الصادق الأمين ، لم يتغير فيه حرف ولا رسم ولا حركة ولا غنة ولا مد - وقد مضى على تروله أكثر من أربعة عشر قرناً ، مرت فيها أمته بأطوار من التراجع والانحطاط ، وفقدت فيها الذاكرة الإسلامية ملايين المخطوطات التي أبادتها غزوات العطاء - واندثرت فيها مذاهب وفلسفات .. وظل القرآن الكريم عزيزاً متيناً محفوظاً بحفظ الله خير الحافظين .. فال تاريخ - هو الآخر - قد عدا شاهداً على هذا الحفظ الإلهي لكل القرآن الكريم ..

فبرهان العقل - المتعلق بختم الرسالة .. وختم الوحي - يجعل حفظ القرآن - كل القرآن - لإقامة الحجة على الناس - ضرورة عقلية ..

وكذلك النقل المتكرر في القرآن - بلفظ القرآن .. والكتاب .. والتذليل .. والذكر - شاهد هو الآخر على الحفظ الإلهي لكل حرف وكل كلمة وكل آية وكل سورة من هذا القرآن الكريم .. فهو وحى الله الخاتم .. تعهد - سبحانه وتعالى - بجمعه وقرائه

وحفظه ، حجة خالدة ، كى لا يكون للناس على الله حجة إذا ما ضاع شيء من هذا التنزيل العزيز المتع الحكيم ..

\* \* \*

أما بعض الروايات التي يفهم منها البعض شيئاً في حفظ كل ما نزل على رسول الله - ﷺ - من القرآن .. فإن منطق العقل ، ومنهاج البحث العلمي ، وقواعد نقد النصوص والمروريات ، التي اتفق عليها العلماء والعقلاء من كل الحضارات والفلسفات والأنساق الفكرية كلها تؤكد على ضرورة الموازنة بين المتعارض والمتنافق من الروايات .. والأأخذ بالمصدر الأوثق عند تعذر الجمع بين الروايات .. فإذا كان لدينا - على نحو ما قدمنا - شهادة العقل الصريح على أن حفظ القرآن - كل القرآن - هو ضرورة عقلية ، تقتضيها حقيقة ختم النبوة والرسالة وакتمال الوحي .. وإذا كانت شهادة العقل الصريح هذه مدعاومة بنصوص آيات القرآن الكريم ، أي بالمصدر المعجز ، قطعى الدلالة والثبوت .. فهل يكون عاقلاً من يترك شهادة العقل الصريح ، والنقل المعجز الصحيح ، ويسلفت إلى رواية من الروايات يعلم الله من رواها؟ ولماذا رواها؟

إن منطق البحث العلمي ، الذي أجمع عليه كل عقلاء الدنيا ، في التعامل مع النصوص ، قد حسم هذه القضية .. ، التي ترجو أن تكون هذه الإجابة حاسمة للشبهة المثارة حولها .. والله من وراء القصد ، منه نلتمس الهدى والحكمة والرشاد ..

## الشَّبَهَةُ الثَّانِيَةُ: حَوْلَ تَارِيْخِيَّةِ أَحْكَامِ الْقُرْآنِ

«... وَهُمْ - بِالنِّسْبَةِ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ - يَعْتَبِرُونَ أَنَّ الْقُرْآنَ غَيْرَ صَالِحٍ لِكُلِّ زَمَانٍ، وَأَنَّهُ وَقْتٌ، أَىَّ أَنَّهُ جَاءَ لِوقْتٍ قَدْ مَضَى، وَلَا يَتَلَاءَمُ مَعَ الْعَصْرِ الْحَالِيِّ، وَأَنَّهُ يَحْبَبُ أَنْ تَغْيِيرَ تَفْسِيرَاتِهِ بِمَا يَنْسَابُ هَذَا الْوَقْتُ، وَعَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ:»

- إِرْثُ الْمَرْأَةِ، «.....لِلذِّكْرِ مَثَلٌ حَظُّ الْأَثْتَيْنِ.....» يَقُولُونَ: إنَّ هَذِهِ الْآيَةِ قَدْ جَاءَتْ لِرَمْنَ مَعِينٍ، وَيَحْبَبُ أَنْ تَغْيِيرَ، بِحِيثُ يَتَسَاوِي الرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ فِي الْإِرْثِ .  
- وَكَذَلِكَ الْأَمْرُ بِالنِّسْبَةِ لِشَهَادَةِ الْمَرْأَةِ، (حِيثُ يَطَالِبُونَ بِمَسَاوَةِ الرَّجُلِ بِالْمَرْأَةِ مِنْ حِيثُ الشَّهَادَةِ) اهـ .

**الجواب:**

أَمَا القَوْلُ بِتَارِيْخِيَّةِ - أَوْ تَارِيْخَانِيَّةِ - وَوَقْتِيَّةِ أَحْكَامِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ .. يَعْنِي «أَنَّهَا غَيْرَ صَالِحةٍ لِكُلِّ زَمَانٍ» .. إِنَّ لَنَا عَلَيْهَا مَلَاحِظَاتٍ نُسَوِّقُهَا فِي عَدْدٍ مِنَ النَّقَاطِ :

أَوْلَاهَا: أَنَّ هَذِهِ الدَّعْوَى لَيْسَتْ جَدِيدَةً، فَلَقَدْ سَبَقَ وَتَبَيَّنَتْ فَلَاسِفَةُ التَّنْوِيرِ الْعَرَبِيِّ الْوَضُعِيِّ الْعَلَمَانِيِّ، بِالنِّسْبَةِ لِلتَّوْرَةِ

والإنجيل . . فرأوا أن قصصها مجرد رموز ، بل ورأوا أن الدين والتدين إنما يمثل «مرحلة تاريخية» في عمر التطور الإنساني ، مثلت مرحلة طفولة العقل البشري ، ثم تلتها - على طريق التضيّع - مرحلة «الميتافيزيقا» ، التي توارت هي الأخرى لحساب المرحلة الوضعية ، التي لا ترى علمًا إلا إذا كان نابعاً من الواقع ، ولا ترى سبلاً للعلم والمعرفة إلا العقل والتجارب الحسية . . وما عدا ذلك - من الدين وأحكام شرائعه - فهي «إيمان» مثل مرحلة تاريخية على درب التطور العقلي ، ولم يعد صالحًا لعصر العلم الوضعى - اللهم إلا حكم العامة والسيطرة على نزعاتهم وغراائزهم !

هكذا بدأت وتبليورت نزعة «تاريخية وتاريخانية» النصوص الدينية في فكر التنوير الغربي العلماني والنهضة الأوروبية الحديثة . .

وإذا كان هذا القول قد جاز ، ووُجد له بعض المبررات - في الغرب - بالنسبة لكتب رسالات خاصة يقوم بعینهم - بني إسرائيل - الذين جاءتهم اليهودية وال المسيحية ، ونزلت لهم التوراة والإنجيل . . ولزمان معين . . وبتفاصيل تشريعات - وخاصة في التوراة - تجاوزها تطور الواقع ، فإن دعوى تاريخية النص الديني لا مكان لها ولا ضرورة تستدعيها بالنسبة للقرآن الكريم . .

ذلك أن القرآن هو كتاب الشريعة الخاتمة ، والرسالة التي ختمت

بها النبوات والرسالات ، فلو طبقنا عليه قاعدة تاريخية النصوص الدينية لحدث «فراغ» في المرجعية الدينية ، إذ لا رسالة بعد رسالة محمد - ﷺ - ولا وحي بعد القرآن .. . وإذا حدث هذا «الفراغ» في المرجعية والمحجة الإلهية على الناس ، زالت حجة الله على العباد في الحساب والجزاء ، إذ سيقولون : يا ربنا ، لقد أنزلت علينا كتاباً نسخه التطور ، فماذا كان علينا أن نطبق ، بعد أن تجاوز الواقع المتطور آيات وأحكام الكتاب الذي أنزلته لهدايتنا؟! .

وثاني هذه النقاط : أن التاريخية والتاريخانية - أي وقتية الأحكام - لا يقول بها أحد في أحكام العبادات .. وإنما يقول بها أصحابها في آيات وأحكام المعاملات .. . وهم يخطئون إذا ظنوا أن هناك حاجة إليها في أحكام المعاملات التي جاء بها القرآن الكريم .. ذلك أن القرآن الكريم - في المعاملات - قد وقف عند «فلسفة» و «كلمات» و «قواعد» و «نظريات» التشريع ، أكثر مما فصل في تشريع المعاملات .. فهو قد فصل في الأمور الثوابت ، التي لا تتغير بتغير الزمان والمكان ، مثل منظومة القيم والأخلاق ، والقواعد الشرعية التي تستنبط منها الأحكام التفصيلية ، والحدود المتعلقة بالحفظ على المقاصد الكلية للشريعة .. . وترك تفصيل أحكام المعاملات لعلم الفقه ، الذي هو اجتهاد محكم بثوابت الشريعة الإلهية ، وذلك حتى يظل هذا الفقه - فقه المعاملات - متتطوراً دائماً وأبداً ، غير

الزمان والمكان ، ليواكتب تغير الواقع ومستجدات الأحداث ، في إطار  
كليات الشريعة وقواعدها ومبادئها - التي تحفظ على أحكامه المتغيرة  
إسلاميتها ، دائمًا وأبدًا ..

وهذه «الصيغة الإسلامية» الفريدة ، التي جاءت بالنص الإلهي  
الثابت - أي الشريعة ، التي هي وضع إلهي ثابت - تحفظ إسلامية  
والهيبة المرجعية والمصدر دائمًا وأبدًا .. بينما وكلت أمر التغييرات  
إلى الفقه التجدد والمتغيرة - والفقه هو علم الفروع - .. هذه  
«الصيغة الإسلامية» هي التي وازنت بين ثبات النص وتطور  
التفسير البشري للنص الإلهي الثابت .. وجمعت بين ثبات  
«الوضع الإلهي» وتطور «الاجتهاد الفقهي» .. أي جمعت بين  
ثبات المرجعية والنص ، وبين تطور الاجتهاد الفقهي الماكتب  
لتغييرات الواقع عبر الزمان والمكان ..

وثالث هذه النقاط : تتعلق بالأمثلة التي سيقت وتساق من قبل  
دعاة تاريخانية وتأريخانية النصوص الدينية ، للتدليل على ضرورة  
تطبيق هذه التاريخانية - في زعمهم - على أحكام القرآن الكريم  
في المعاملات ..

ونحن عندما ننظر في هذه الأمثلة - وهي هنا : ميراث المرأة ..  
وشهادتها - نزداد يقينا بخطأ دعوى تطبيق هذه التاريخانية على  
القرآن الكريم ، وعلى الأحكام التشريعية الواردة فيه .. فليس

صحيحاً أن توريث المرأة في الإسلام قد جانب الإنفاق لها ، حتى يكون حكمه صالحًا للزمان الماضي دون الزمان المعاصر والمستقبل .. فالأنثى - في الإسلام - لا ترث نصف الذكر دائمًا وأبداً .. والقرآن لم يقل يوصيكم الله في الوارثين للذكر مثل حظ الأنثيين .. وإنما جعل ذلك في حالة بعينها هي حالة «الأولاد» ، وليس في مطلق وكل الوارثين «يُوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين» - النساء : ١١ - .. أما عندما كان التعقيد عاماً للميراث فإن القرآن قد استخدم لفظاً عاماً هو لفظ «النصيب» لكل من الذكور والإناث على حد سواء «للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما أقل منه أو كثر نصبياً مفروضاً» - النساء : ٧ - .

ومعايير التفاوت في نصبة الميراث لا علاقة لها بالجنس .. ذكورة أو أنوثة - على الإطلاق - على غير ما يحسب وبطん الكثيرون - إن لم يكن الأكثرون! - .. وإنما معايير هذا التفاوت ثلاثة :

١ - درجة القرابة .. فكلما كان الوارث أقرب إلى المورث زاد نصيبه في الميراث ..

٢ - وموقع الجيل الوارث في تسلسل الأجيال - وتلك حكمة إلهية بالغة في فلسفة الإسلام للميراث - فكلما كان الوارث صغيراً ،

من جيل يستقبل الحياة وأعباءها ، وأمامه المسؤوليات المتنامية ،  
كان نصيبه من الميراث أكبر .. فابن المتوفى يرث أكثر من أبيه  
المتوفى - وكلاهما ذكر - وبنات المتوفى ترث أكثر من أمها -  
وكليتاهمما أثني .. بل إن بنت المتوفى ترث أكثر من أبيها! ..

٣ - والعامل الثالث في تفاوت نصبة الميراث هو العباءة المالی الذي  
يتحمله ويكلف به الوارث طبقاً للشريعة الإسلامية .. فإذا  
اتفقت وتساوت درجة القرابة .. وموقع الجيل الوارث - مثل  
مركز الأولاد - أولاد المؤرث - مع تفاوت العباءة المالی بين الولد  
والذكر - المكلف بإعالة زوجة وأسرة وأولاد - وبين البنت - التي  
سيعلوها هي وأولادها زوج ذكر - هنا يكون للذكر مثل حفظ  
الأثنين .. وهو تقسيم ليس فيه أية شبهة لظلم الأثني .. بل  
ربما كان فيه تمييز وامتياز لها ، احتياطاً لاستضعافها ..

وهذه الحقائق في المواريث الإسلامية - التي يجهلها ويتجاهلها دعاة  
تاريخية آيات الميراث - هي التي جعلت المرأة - في الجداول الإجمالية  
حالات الميراث الإسلامي - ترث مثل الرجل ، أو أكثر من الرجل ،  
أو ترث ولا يرث الرجل في أكثر من ثلاثة حالات من حالات الميراث  
الإسلامي ، بينما هي ترث نصف ما يرث الذكر في أربع حالات فقط!  
ولمن أراد أن يطلع على هذه الحقائق أن يرجع إلى كتابنا (هل  
الإسلام هو الحل .. لماذا وكيف؟) - فصل «التحرير الإسلامي»

للمرأة» - طبعة دار الشروق - القاهرة - وعلى كتاب (ميراث المرأة وقضية المساواة) للدكتور صلاح الدين سلطان - سلسلة «في التأثير الإسلامي» - طبعة دار نهضة مصر - القاهرة».

وكذلك الحال مع «شهادة المرأة» ففى الأمور والميادين التى تقل فيها خبرة المرأة عن الرجل تكون شهادتها أقل من شهادته . . . وحتى لا تهدر شهادتها كلياً فى هذه الميادين ، سمع القرآن بشهادتها ، على أن تدعى بشهادة واحدة من بنات جنسها ، تذكرها بما تنساه من وقائع الشهادة . . أما الميادين التى تختص بالمرأة ، والتى تكون خبرتها فيها أكثر ، فإن شهادتها فيها تكون أعلى ، وأحياناً ضعف شهادة الرجل . . بل إن شهادتها تعتمد حيث لا تعتمد شهادة الرجل فى بعض هذه الميادين .

والذين يظنون أن آية سورة البقرة (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ولنكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب ولنملل الذي عليه الحق ولويق الله ربه ولا يخس منه شيئاً فإن كان الذي عليه الحق سفيها أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يملأ هو فليملأ ولنملل بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونوا رجالين فرجل واحد أوتان من ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكرة

إِنَّمَا الْأُخْرَى وَلَا يَاب الشُّهَدَاء إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسَامُوا أَنْ  
تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجْلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ  
لِلشُّهَادَةِ وَأَدْنَى إِلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا  
بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ إِلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَاعَتُمْ وَلَا يُضَارَ  
كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بَعْنَمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمُكُمْ  
اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨١) وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا  
كَاتِبًا فَرَهَانَ مُقْبُوضَةً فَإِنْ أَمْنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلِيُؤْذَنَ الَّذِي أَوْتَمَ  
أَمَانَتَهُ وَلِيُقْرَأَ اللَّهُ رِبِّهِ وَلَا تَكْتُمُوا الشُّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّمَا قَلْبُهُ  
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ . الْبَقْرَةُ : ٢٨٣ ، ٢٨٢ .

الذين يظنون أن هذه الآية - ٢٨٢ - تجعل شهادة المرأة نصف  
شهادة الرجل بإطلاق ، وفي كل الحالات مخطئون وواهمون ..  
فهذه الآية تتحدث عن دين خاص ، في وقت خاص ، يحتاج  
إلى كاتب خاص ، وإملاء خاص ، وإشهاد خاص ..  
وهذه الآية - في نصها - استثناء ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً  
تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ إِلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ .

ثم إنها تستثنى من هذه الحالة الخاصة الإشهاد على البيوع ،  
فلا تقيدها بما قيدت به حالة هذا الدين الخاص ..

ثم إنها تتحدث ، مخاطبة ، لصاحب الدين ، الذي يريد أن يستوثق لدينه الخاص هذا بأعلى درجات الاستيثاق .. ولا تخاطب الحاكم - القاضى - الذى له أن يحكم بالبينة واليمين ، بصرف النظر عن جنس الشاهد وعدد الشهود الذين تقوم بهم البينة .. فللحاكم - القاضى - أن يحكم بشهادة رجلين .. أو امرأتين .. أو رجل وامرأة .. أو رجل واحد .. أو امرأة واحدة .. طالما قامت البينة بهذه الشهادة .

ومن يرد الاستزادة من الفقه الإسلامي في هذه القضية - التي يجهلها الكثيرون - فعليه أن يرجع إلى آراء شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨ هـ ١٢٦٣ - ١٣٢٨ م) وتلميذه العظيم ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١ هـ ١٢٦٢ - ١٢٥٠ م) في كتابه (طرق الحكمية في السياسة الشرعية) ص ١٠٣، ١٠٤ طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧ م .. ففيه - وفق نص ابن تيمية - أن ما جاء عن شهادة المرأة في آية سورة البقرة ، ليس حصرًا لطرق الشهادة «وطرق الحكم التي يحكم بها الحاكم ، وإنما ذكر لنوعين من البيانات في الطرق التي يحفظ بها الإنسان حقه .. فالآية نصيحة لهم وتعليم وإرشاد لما يحفظون به حقوقهم ، وما تحفظ به الحقوق شيء وما يحكم به الحاكم شيء ، فإن طرق الحكم أوسع من الشاهدين والمرأتين ...» .

ولقد قال الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤ - ٧٨٠ هـ ٨٥٥ - ٨٥٥ م) إن

شهادة الرجل تعدل شهادة امرأتين فيما هو أكثر خبرة فيه ، وأن شهادة المرأة تعدل شهادة رجلين فيما هي أكثر خبرة فيه من الرجل .. فالباب مفتوح أمام الخبرة ، التي هي معيار درجة الشهادة ، فإذا تخلفت خبرة الرجل في ميدان تراجع مستوى شهادته فيه .. وإذا تقدمت وزادت خبرة المرأة في ميدان ارتفع مستوى شهادتها فيه .. وليس هناك في الفقه الإسلامي تعميم وإطلاق في هذا الموضوع ، إذ الشهادة سبيل للبيينة التي يحكم الحاكم - القاضي - بناء عليها ، بصرف النظر عن جنس الشهود وعدهم ..

ولو فقه الداعون إلى تاريخية وتاريخانية آيات الأحكام في القرآن حقيقة هذه الأحكام التي توهموا الحاجة إلى تجاوزها - فقالوا بتاريخية ووقتية معانى نصوصها القرآنية - لأندرکوا أن وقوف النص القرآني عند كليات وفلسفات وقواعد ونظريات التشريع ، مع ترك تفصيلات التشريع لاجتهادات الفقهاء ، هو الذي جعل أحكام القرآن الكريم في المعاملات - فضلاً عن العبادات .. والقيم والأخلاق - صالحة لكل زمان ومكان ، فكانت شريعته آخر وختام الشرائع السماوية ، دونها حاجة إلى هذه «التاريخية .. والتاريخانية» التي استعاروها من الفكر الغربي ، دوّعا إدراك لخصوصية النص الإسلامي ، وتغيير مسيرة الفقه الإسلامي والحضارة الإسلامية .. ولو أنهم فقهوا حقيقة الأمثلة التي توهموها دواعي لهذه التاريخية - من مثل ميراث المرأة .. وشهادتها - لكتفونا مئونة هذا الجهد في كشف هذه الشبهات! ..

## الشَّيْءَةُ التَّالِثَةُ: حَوْلَ حُرُوفٍ فَوَاحِجٍ بَعْضِ السُّورِ الْقَرآنِيَّةِ

«وَهُمْ يَقُولُونَ : إِنَّ الْقُرآنَ الْكَرِيمَ يَحْتَوِي عَلَى طَلَاسِمٍ لَمْ تَفْسُرْ ، كَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ (الْمُ) ، وَغَيْرُهَا مَا ذُكِرَ فِي السُّورِ الْأُخْرَى .»  
وَيَسْأَلُونَ : كَيْفَ لَمْ يَسْأَلُ الصَّحَابَةُ عَنْ مَعَانِي هَذِهِ الْحُرُوفِ ، وَهُمُ الَّذِينَ عَاهَدُوا الرَّسُولَ - **بَيْنَهُمْ** - يَوْمًا بِيَوْمٍ ، وَسَأَلُوهُ عَنْ أَنْفُهُ الْأَشْيَاءِ ! فَكَيْفَ لَمْ يَسْأَلُوا عَنْ هَذِهِ الرَّمُوزِ؟!»

وَيَصِلُونَ بِذَلِكَ إِلَى أَنَّ الصَّحَابَةَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، إِمَّا أَنَّهُمْ قَدْ سَأَلُوا الرَّسُولَ وَأَجَابُوهُمْ عَنْ ذَلِكَ ، وَلَمْ يَصِلُنَا ذَلِكَ الْجَوابُ فِي حَدِيثٍ مِنَ الْأَحَادِيثِ - التَّيْ فَقِدْتُ (حَسْبَ اعْتِقَادِهِمْ) - أَوْ أَنَّهُ لَمْ تَكُنْ قَدْ فَكَّتْ هَذِهِ الرَّمُوزُ أَصْلًا ، وَتَلِكَ مَصِيرَةُ أَكْبَرٍ ، حِيثُ إِنْ مَعْنَى ذَلِكَ إِتْبَانُ الْقُرآنِ بِطَلَاسِمٍ لَا مَعْنَى لِهَا» اهـ .

**الجواب:**

هَذِهِ الْحُرُوفُ - مِنْ مِثْلِ : (الْمُ) - وَ(حُمَّ) - وَ(الْأَرُّ ) - وَ(الْمَرُّ) - وَ(نُّ ) .. إِلَخ .. وَالَّتِي وَقَفَ أَمَامَهَا الْمُفْسِرُونَ الْقَدَامِيُّونَ وَقَفَاتِ قدْ تَبَدَّلُ مَقْنِعَةً لِلبعْضِ وَغَيْرِ مَقْنِعَةً لِلبعْضِ الْآخِرِ .. تَطْرَحُ قَضِيَّةٌ مِنْ قَصَادِيَّاتِ التَّفْسِيرِ لِلْقُرآنِ الْكَرِيمِ ، تَقُولُ :

إن القرآن الكريم وحى إلهى ، متعدد فى وجوه الإعجاز .. ففيه  
اعجاز فى النظم .. واعجاز فى البلاغة .. واعجاز فى تغير  
الأسلوب ، الذى لا هو بالنشر ولا هو بالشعر - وإنما هو قرآن - ..  
واعجاز فى الإخبار بالغيب - من أنباء الأولين والآخرين ، وبده  
الخلق ، وأسرار الكون ، وعالم الآخرة - . واعجاز فى الإشارة إلى  
الحقائق العلمية والأيات الكونية التى ما كانت لتخطر على قلب  
بشر تلقاه أو مفسر فسره فى عصر التنزيل .. واعجاز فى القدرة  
الدائمة - عبر الزمان والمكان وأنواع أحجاس الإنسان - على حلق  
الفرد السوى والمجتمع السوى والهداية إلى الصراط المستقيم ،  
وتحقيق سعادتى الدنيا والآخرة ..

وغير وجوه الإعجاز هذه ، يظل الباب مفتوحاً أمام العقل المتدبّر  
فى أسرار القرآن لاكتشاف وجوه جديدة للإعجاز ، والاطلاع على  
أسرار قرآنية لم يعرفها الأقدمون ، والاهتداء إلى عجائب - في هذا  
الكتاب الذى لاتنقضى عجائبه - لم يهتد إليها السايقون من  
المفسرين ..

فاكتشاف الجديد فى أسرار وعجائب القرآن ، واهتداء المفسر  
المعاصر - والمستقبلى - إلى ما لم يحط به علم المفسرين القدماء -  
بمن فىهم الصحابة - لا يقدح فى القرآن الكريم .. وإنما هو الطبيعي  
مع هذا الكتاب المتنامية أوجه إعجازه ، والمتداقة مستجدات

معانيه ، والمتواالية كنوز أسراره مع مراحل نمو العقل الإنساني ، وترانيم العلوم والمعارف المعينة على اكتشاف أسرار آياته ، واشتداد عود الفكر المتدين لأبعاد هذا القرآن الكريم .

فالحقائق الحديثة للعلم الطبيعي قد جعلتنا نعلم عن الآيات القرآنية التي تحدثت عن أطوار نمو الأجنة في الأرحام ما لم يعلمه فقيه الأمة وحبرها ابن عباس (٣٢ هـ - ٦٨٧ هـ - ١٩٦٠ م) والمفسرون القدماء . . فهل يصح أن نتساءل : لماذا لم يسأل الصحابة رسول الله - ﷺ - عن هذه الحقائق فيعرفوها منذ ذلك التاريخ؟! . . لقد ظلت هذه الحقائق مكتونة حتى كشف عنها تطور العلم الطبيعي حديثاً ، فكانت سبباً لإياع عدد من كبار العلماء بالإسلام عندما وقفوا أمام قول الله ، سبحانه وتعالى ، في هذا القرآن : « ولقد خلقنا الإنسان من سلاله من طين (١٢) ثم جعلناه نطفة في قرار مكين (١٣) ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضعة فخلقنا المضعة عظاماً فكسوْنا العظام لحمًا ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » - المؤمنون : ١٢-١٤ . . وكذلك الحال مع الآيات التي تحدثت عن ظلمة أعمق المحيطات أو كظلمات في بحر لجي يغشاها موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكدر يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ) - النور : ٤٠ . . وعن تنافق الأكسجين

كلما ابتعدنا - صعوداً - عن القشرة الأرضية وغلافها ، وخرج  
 صدور الصاعددين إلى فضاء السماء ﴿فَمَنْ يُرِدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَ يَسْرِحُ  
 صدره لِلإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدُ أَنْ يُضْلَلَ يَجْعَلُ صدره ضيقاً حرجاً كَانَمَا  
 يَصْعُدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرَّجُسُ عَلَى الدِّينِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾  
 - الأنعام : ١٢٥ . . . وعن التحام الأرض بالسماء - (كانتا رتقا) -  
 قبل الانقضاض ﴿أَوْ لَمْ يَرِدُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا  
 رَتْقًا فَتَقَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ -  
 الأنبياء : ٣٠ . . . وعن نزول الحديد من السيازك إلى الأرض - وقد  
 ثبت أنه غريب عن مكوناتها - ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ  
 وَمَنَافِعٌ لِلنَّاسِ﴾ - الحديد : ٢٥ . . . وعابر ذلك من التفسيرات  
 الجديدة لآيات الإشارات العلمية والكونية في القرآن الكريم ، تلك  
 التي ما كان ليدركها المفسرون القدماء - من فيهم الصحابة  
 والتابعون - قبل إعانة المكتشفات العلمية الحديثة على فتح أبواب  
 هذه التفسيرات .

إذا ، فالطبيعي هو بقاء أبواب الأسرار القرآنية مفتوحة ومتداقة  
 باجدد أمام العقل الإنساني . ولذلك ، فإن تصور ضرورة معرفة  
 جيل الصحابة بكل أسرار القرآن وعجائبه هو الأمر الغريب . . . بل  
 هو التصور الذي يقدح في القرآن الكريم ! . .

و انطلاقاً من هذه الحقيقة ، التي يعلمها أهل العلم بالقرآن ، والتي تجسست في نمو وتطور عطاء المفسرين للقرآن مع تطور مستوى المعارف والعلوم المستخدمة في اكتشاف أسرار آيات الله المسطورة في كتابه الحكيم - أي استخدام المكتشفات الإنسانية لآيات الله الكونية المنظورة في اكتشاف الجديد من أسرار آيات الله القرآنية المسطورة . . . انطلاقاً من هذه الحقيقة ، لا ترى بأساً من فتح أبواب جديدة لفهم - بل وأفهام جديدة - للحروف والرموز التي جاءت فواع لبعض سور القرآن الكريم ، والتي لم تعد تفسيرات القدماء لها مقنعة للعقل المسلم في العصر الذي نعيش فيه . . . والتي فوض كثيرون من المفسرين إلى الله علم المراد منها .  
بل إن في واقعنا الفكري الراهن «اجتهادات» باللغة الحادة . وأحياناً مدهشة - تقدم تفسيرات غير مسبوقة لهذه الحروف والرموز والكلمات . . .

فهناك كتاب «التفسير العلمي لحروف أوائل السور في القرآن الكريم» للدكتورة تحية عبد العزيز إسماعيل - طبعة القاهرة - مطبع الأهرام سنة ١٩٩٠ م . وفيه رؤية لهذه الحروف باعتبارها رموزاً صوتية ، تمثل المستوى الأول الذي بدأت به اللغة الإنسانية الأولى - ولمؤلفة ترى أن العربية قد كانت هي اللغة التي بدأت بها الجماعة البشرية الأولى : آدم وزوجه وبنوه . وذلك قبل أن تختلف

الأم وتنعدد اللغات .. وأن الكلمات العربية الكثيرة الموجودة في مختلف اللغات العالمية ليست وافداً عربياً على هذه اللغات ، وإنما هي من بقايا اللغة العربية الأم في هذه اللغات - وهي قد أفردت لهذا المبحث رسالتها للدكتوراة - بالإنجليزية - بعنوان (العربية الklasicke) ... كما ترى أن سائر اللغات - غير العربية - فيها أربع مستويات .. مستوى الحرف .. ومستوى الكلمة .. ومستوى الجملة .. ومستوى المعنى .. وأن العربية - بسبب أنها قد مثلت بداية النطق الإنساني - قد احتفظت بمستوى خامس ، لا نظير له في اللغات الأخرى ، وهو مستوى الرمز الصوتي ، الذي بدأ به النطق الإنساني .. فالصوت فيها رمز لمعنى - وليس فقط الحرف والكلمة والجملة ... وهي قد أفردت في كتابها (التفسير العلمي لحروف أوائل السور في القرآن) فضولاً لمعنى كل رمز من هذه الرموز الصوتية التي جاءت قواعده لبعض السور القرآنية ، ونبهت على القرائن التي جعلت وتحجعل لمعنى الرمز الصوتي علاقة وثيقة بأيات ومعانى وأغراض السورة التي افتتحت بهذا الرمز الصوتي ..

وفي هذا «الاجتهاد» - عند من يتفق مع صاحبته - فتح جديد ، يكشف عن دلالات جديدة لمعانى هذه الحروف والرموز ..

وإذا نحن انطلقنا من فكرة أولية اللغة العربية ، ومن أن الكلمات العربية الموجودة في اللغات القديمة الأخرى هي من بقايا

العربية الأم ، فستجد «اجتهاداً» آخر - في كتاب (الهieroغليفية تفسر القرآن الكريم) - لسعد عبد المطلب العدل - طبعة القاهرة سنة ١٩٩٩م - يقول إن هذه الرموز والكلمات لها في قاموس اللغة المصرية القديمة معانٍ مناسبة تماماً لموقعها في أوائل السور التي افتتحت بها ، وذات علاقة ببعض معانٍ آيات من تلك السور ..

والأهم في هذا المقام - وبصرف النظر عن الاتفاق والاختلاف مع مثل هذه «الاجتهادات» - هو أن بقاء الباب مفتوحاً لاكتشاف المعانٍ الجديدة والأسرار غير المسبوقة لهذه الحروف والرموز هو الطبيعي .. فالمفترض هو أن نظل أبواب الفهم والفقه مفتوحة أمام العقل المسلم لاكتشاف الجديد والمزيد من كنوز القرآن وعجائبها وأسرارها .. والواجب على العقل المسلم - المعاصر .. والمستقبلى - أن يعي ذلك ، ويؤمن به ، دون أن يكون ذلك قادحاً فيما قدم القدماء من تفسيرات ناسبت احتياجات مجتمعاتهم ، ومستويات العلوم والمعارف التي أتيحت لهم فاستخدموها في تلك التفسيرات ..

فنحن أمام كتاب لا تنقضى عجائبـه .. ولا تنفذ مكتشفـات أسرارـه .. ولسنا أمام نص قد طوت الأفهام - حتى ولو كانت أفهمـا الصحابة - كل أسرارـه ومعانـيه ومرامـيه .

## الشَّهِيدَةُ الرَّابِعَةُ: حَوْلَ عَصْمَةِ الرَّسُولِ

«وَهُمْ لَا يَعْرِفُونَ أَنَّ الرَّسُولَ مَعْصُومٌ عَنِ الْخَطَا، وَيَقُدِّمُونَ الْأَدَلَّةَ عَلَى ذَلِكَ بِسُورَةِ (عَبْسٍ وَتَوْلِي) وَكَذَلِكَ عَنِ الدَّلِيلِ جَامِلِ الرَّسُولِ - ~~بِلِلَّهِ~~ زَوْجَاهُ، وَنَزَّلَتِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ التَّيْنِيَّةُ عَنِ الدَّلِيلِ» اهـ.

الجواب:

إن عصمة الرسول - ~~بِلِلَّهِ~~ - وكذا عصمة كل الرسل ، عليهم السلام ، يجب أن تفهم في نطاق مكانة الرسول .. ومهمة الرسالة .. فالرسول : يُوحى ~~بِشْرَى~~ إِلَيْهِ .. أَيْ أَنَّهُ - مع بشريته - له خصوصية الاتصال بالسماء ، بواسطة الوحي .. ولذلك ، فإن هذه المهمة تقتضى صفات يصنعها الله على عينيه فیمن يصطفيه ، كى تكون هناك مناسبة بين هذه الصفات وبين هذه المكانة والمهام الخاصة الموكولة إلى صاحبها ..

والرسول مكلف بتبلیغ الرسالة ، والدعوة ~~إِلَيْهَا~~ ، والجهاد في سبيل إقامتها وتطبيقاتها .. وله على الناس طاعة هي جزء من طاعة الله - سبحانه وتعالى - **﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُول﴾** - النساء : ٥٩ -

﴿أطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُول﴾ - آل عمران : ٣٢ - ﴿مِن يُطِعِ الرَّسُولَ  
 فَقَدْ أطَاعَ اللَّهَ﴾ - النساء : ٨٠ - ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تَحْبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي  
 يُحِبِّكُمُ اللَّهُ﴾ - آل عمران : ٢١ - ولذلك ، كانت عصمة الرسل  
 فيما يلغونه عن الله ضرورة من ضرورات صدقهم والثقة في هذا  
 البلاغ الإلهي الذي اختبروا ليقوموا به بين الناس . . وبداهة العقل  
 - فضلاً عن النقل - حاكمة بأن مرسيل الرسالة إذا لم يتحير الرسول  
 الذي يصفى الصدق على رسالته ، كان عابثاً . . وهو ما يستحيل  
 على الله ، الذي يصطفي من الناس رسلاً تؤهلهم العصمة لإضفاء  
 الثقة والصدق على البلاغ الإلهي واللحجة على الناس يصدق هذا  
 الذي يبلغون . .

وفي التعبير عن إجماع الأمة على ضرورة العصمة للرسول فيما  
 يبلغ عن الله ، يقول الإمام محمد عبد الله (١٢٦٦-١٢٢٣هـ)  
 (١٨٤٩-١٩٠٥م) عن عصمة الرسل - كل الرسل - . . ومن لوازمه  
 ذلك بالضرورة : وجوب الاعتقاد بعلو فطرتهم ، وصحة عقولهم ،  
 وصدقهم في أقوالهم ، وأمانتهم في تبليغ ما عهد إليهم أن يبلغوه ،  
 وعصمتهم من كل ما يشوه السيرة البشرية ، وسلامة أيديانهم مما  
 تنبو عنه الأ بصار وتنفر منه الأذواق السليمة ، وأنهم متزهون عما  
 يصاد شيئاً من هذه الصفات ، وأن أرواحهم ممدودة من الجلال  
 الإلهي بما لا يمكن معه لنفس إنسانية أن تسطو عليها سطوة

روحانية . إن من حكمة الصانع الحكيم - الذى أقام الإنسان على  
قاعدة الإرشاد والتعليم - أن يجعل من مراتب الأنفس البشرية  
مرتبة يُعَدُّ لها ، بمحض فضله ، بعض من يصطف فيه من خلقه ، وهو  
أعلم حيث يجعل رسالته ، يميزهم بالفطر السليمة ، ويبلغ بأرواحهم  
من الكمال ما يليقون معه للامتناع بأنوار علمه ، والأمانة على  
مكتون سره ، ما لو انكشف لغيرهم انكشف لهم لفاضت له نفسه ،  
أو ذهبت بعقله جلالته وعظمته ، فيشرفون على الغيب بإذنه ،  
ويعلمون ما سيكون من شأن الناس فيه ، ويكونون في مراتبهم  
العلوية على نسبة من العالمين . نهاية الشاهد وبداية الغائب ، فهم  
في الدنيا كأنهم ليسوا من أهلها ، هم وفـد الآخرة في لباس من  
ليس من سكانها . . أعا فيما عدا ذلك - (أى الاتصال بالسماء ،  
والتبليغ عنها) - فهم بشر يعتريهم ما يعتري سائر أفراده ، يأكلون  
ويشربون وينامون ويسهون وينسون فيما لا علاقة له بت bliغ  
الأحكام ، ويرضون وتمتد إليهم أيدي الظلمة ، وينالهم الاضطهاد ،  
وقد يقتلون » - (الأعمال الكاملة) جـ ٢ ص ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤٢٠ ، ٤٢١  
٤٢١ - دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة - طبعة القاهرة - دار  
الشروق - سنة ١٩٩٣ م .

فالعصمة - كالمعجزة - ضرورة من ضرورات صدق الرسالة ومن  
مقتضيات حكمة من أرسل الرسل - عليهم السلام -

وإذا كان الرسول ، كبشر ، يجوز على جسده ما يجوز على أجساد البشر . وإذا كان الرسول كمجتهد قد كان يمارس الاجتهاد والشوري واعمال العقل والفكر والاختيار بين البديل في مناطق وميادين الاجتهاد التي لم ينزل فيها وحى إلهي . فإنه معصوم في مناطق وميادين التبليغ عن الله - سبحانه وتعالى - لأنَّه لو حاز عليه الخطأ أو السهو أو مجانية الحق والصواب أو اختيار غير الأولى في مناطق وميادين التبليغ عن الله لتطرق الشك إلى صلب الرسالة والوحى والبلاغ ، بل وإلى حكمته من اصطلفاه وأرسله ليكون حجة على الناس .. لذلك ، كانت العصمة صفة أصلية وشرطًا ضروريًا من شروط رسالة جميع الرسل ، عليهم السلام .. فالرسول ، في هذا النطاق - نطاق التبليغ عن الله - ﴿ وَمَا يُطِقُّ عَنِ الْهَوَى ﴾ (٢) إنَّهُ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ - النجم : ٣ ، ٤ - وبلاعه ما هو يقول بشر ، ولذلك كانت طاعته فيه طاعة لله ، وبغير العصمة لا يتأتى له هذا المقام ..

أما اجتهادات الرسول - بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ - فيما لا وحى فيه ، والتي هي ثمرة لـ إعماله لعقله وقدراته وملكاته البشرية ، فلقد كانت تصادف الصواب والأولى ، كما كان يجوز عليها غير ذلك ... ومن هنا رأينا كيف كان الصحابة - رضوان الله عليهم - في كثير من المواطن وبإذاء كثير من مواقف وقرارات وأراء واجتهادات الرسول - بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ -

يسألونه - قبل الإدلاء بمساهماتهم في الرأي - هذا السؤال الذي  
شاع في السنة والسيرة :

- «يا رسول الله ، أهو الوحي؟ أم الرأي والمشورة؟ ..»

فإن قال : إنه الوحي . كان منهم السمع والطاعة له ، لأن طاعته  
هنا هي طاعة لله .. وهم يسلمون الوجه لله حتى ولو خفيت  
الحكمة من هذا الأمر عن عقولهم ، لأن علم الله - مصدر الوحي -  
مطلق وكلى ومحيط ، بينما علمهم نبي قد تخفي عليه الحكمة  
التي لا يعلمها إلا بالله .. أما إن قال لهم الرسول - جواباً عن  
سؤالهم - : إنه الرأي والمشورة .. فإنهم يجتهدون ، ويشيرون ،  
ويصوبون .. لأنه - <sup>بِيَدِهِ</sup> - هنا ليس معصوماً ، وإنما هو واحد من  
المقدمين في الشورى والاجتهاد .. ووقائع نزوله عن اجتهاده إلى  
اجتهادات الصحابة كثيرة ومتناشرة في كتب السنة ومصادر السيرة  
النبوية - في مكان القتال يوم غزوة بدرا .. وفي الموقف من  
أسرها .. وفي مكان القتال يوم موقعة أحد .. وفي مصالحة بعض  
الأحزاب يوم الخندق - إلخ .. إلخ ..

ولأن الرسول - <sup>بِيَدِهِ</sup> - قد أراد الله له أن يكون القدوة والأسوة  
للآمة (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو  
الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً) الأحزاب : ٢١ .. وحتى لا  
يقتدى الناس باجتهاد نبوى لم يصادف الأولى ، كان نزول الوحي

لتصويب اجتهاداته الشى لم تصادف الأولى ، بل وعتابه - أحياناً -  
 على بعض هذه الاجتهادات والاختيارات - من مثل : « عيسى  
 وتولى (١) أن جاءه الأعمى (٢) وما يدريك لعله يزكى (٣) أو  
 يذكر فتتفقه الذكرى (٤) أما من استغنى (٥) فانت له تصدى (٦)  
 وما عليك إلا يزكى (٧) وأما من جاءك يسعنى (٨) وهو يحشى  
 (٩) فانت عنه تلهى (٩) - عيسى : ١٠-١ - . . . ومن مثل : « يا أيها  
 النبى لم تحرم ما أحل الله لك تتعفى مرضات أزواجك والله غفور  
 رحيم (١) قد فرض الله لكم تحلاة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم  
 الحكيم » - التحرير : ٢ ، ١ - . . . ومن مثل : « ما كان لنبي أن  
 يكون له أسرى حتى يُخْنَى في الأرض تُرِيدُون عرض الدنيا والله  
 يُرِيدُ الآخرة والله عزيز حكيم (١٧) لو لا كتاب من الله سبق  
 لمسكم فيما أخذتم عذاباً عظيم » - الانفال : ٦٨ ، ٦٧ - . . .  
 وغيرها من مواطن التصويب الإلهي للاجتهادات النبوية فيما لم  
 يسبق فيه وحي ، وذلك حتى لا يتأسى الناس بهذه الاجتهادات  
 المخالفه للأولى . . .

فالعصمة للرسول - **رسول** - فيما يبلغ عن الله شرط لازم لتحقيق  
 الصدق والثقة في البلاغ الإلهي ، وبدونها لا يكون هناك فارق  
 بين الرسول وغيره من الحكماء والمصلحين ، ومن ثم لا يكون

هناك فارق بين الوحي المعصوم والمعجز وبين الفلسفات والإبداعات البشرية التي يجوز عليها الخطأ والصواب .. في بدون العصمة تصبح الرسالة والوحي والبلاغ قول بشر ، بينما هي ، بالعصمة ، قول الله ، سبحانه وتعالى ، الذي بلغه وبينه المعصوم - عليه الصلاة والسلام - .. فعصمة المبلغ هي الشرط لعصمة البلاغ .. بل إنها ، أيضاً ، الشرط لنفي العبث وثبوت الحكمة من اصطفى الرسول وبعثه وأوحى إليه بهذا البلاغ .

## الشَّبَهَةُ الْخَامِسَةُ: التَّشْكِيكُ فِي الْأَحَادِيثِ

«وَهُم يُشكِّلُونَ فِي صِحَّةِ الْأَحَادِيثِ، وَيُظَهِّرُونَ التَّنَاقُضَاتِ بَيْنَهَا، وَيُذَكِّرُونَ الْحَدِيثَ الَّذِي يَنْصُ عَلَى عَدَمِ زِيَارَةِ الْمَرْأَةِ لِلْقَبُورِ، وَالْحَدِيثَ الَّذِي يَقُولُ (فِي مَعْنَاهِ) إِنَّ الرَّسُولَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: إِنِّي أَمْرَتُكُمْ بِعَدَمِ زِيَارَةِ الْقَبُورِ مِنْ قَبْلِهِ، وَالآنَ أَسْمَحُ لَكُمْ بِزِيَارَةِ الْقَبُورِ - فَيُشَيرُونَ إِلَى ذَلِكَ بِأَنَّهُ تَنَاقُضٌ - وَيُذَلِّلُونَ عَلَى ذَلِكَ بِأَنَّ الْأَمَّةَ قَدْ فَقَدَتِ الْكَثِيرَ مِنَ الْأَحَادِيثِ النَّبُوَّيَّةِ عَبْرَ الزَّمَانِ، أَوْ أَنَّ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ قَدْ حَرَفَتْ عَنْ مَعْنَيِّهَا الصَّحِيحَةِ . . . أَهْدِ

### الجواب:

فِي بَدَايَةِ الْجَوابِ عَنْ شَبَهَةِ هُؤُلَاءِ الَّذِينَ يُشكِّلُونَ فِي الْأَحَادِيثِ النَّبُوَّيَّةِ . . . تَنَبِّهُ عَلَى مَسْتَوِيِّ جَهَلِ كُلِّ الَّذِينَ يُشَيرُونَ مِثْلَ هَذِهِ الشَّبَهَاتِ حَوْلِ الْحَدِيثِ النَّبُوِيِّ الشَّرِيفِ . . . ذَلِكَ أَنَّ التَّدْرِجَ وَالتَّطَوُّرَ فِي التَّشْرِيعِ - الَّذِي يَمْثُلُهُ حَدِيثُ النَّهْيِ عَنْ زِيَارَةِ الْقَبُورِ ثُمَّ إِيَّا هُنَّا . . . هَذَا التَّدْرِجُ وَالتَّطَوُّرُ فِي التَّشْرِيعِ لَا عَلَاقَةَ لَهُ بِالتَّنَاقُضِ بَأَيِّ وَجْهٍ، أَوْ أَيِّ حَالٍ مِّنَ الْأَحْوَالِ . . .

ثُمَّ إِنَّ التَّشْكِيكَ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ النَّبُوَّيَّةِ، وَالْقُولَى بِوُجُودِ تَنَاقُضَاتٍ بَيْنَ بَعْضِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ، أَوْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ آيَاتِ قُرْآنِيَّةٍ . . .

بل والتشكيك في مجمل الأحاديث النبوية ، والدعوة إلى إهانة السنة النبوية ، والاكتفاء بالقرآن الكريم .. إن هذه الدعوى قديمة وجديدة ، بل ومتعددة .. وكما حذر رسول الله - ﷺ - من الكذب عليه .. فلقد حذر من إنكار سنته ، ومن الخروج عليها .

ونحن بإثر هذه الشبهة نواجه بلوتين من الغلو :

أحدهما : يهدر كل السنة النبوية ، اكتفاء بالقرآن الكريم ..  
ويرى أن الإسلام هو القرآن وحده ..

وثانيهما : يرى في كل المرويات المنسوبة للرسول - ﷺ - سنة نبوية ، يكفر المتوقف فيها ، دونما فحص وباحث وتحقيق لمستويات «الرواية» و«الدراءة» في هذه المرويات .. ودونما تمييز بين التوقف إزاء الرواى وبين انكار ما ثبت عن رسول الله - ﷺ - .

وبين هذين الغلوتين يقف علماء السنة النبوية ، الذين وضعوا علوم الضبط للرواية ، وحددوا مستويات المرويات ، بناء على مستويات الثقة في الرواية .. ثم لم يكتفوا - في فرز المرويات - بعلم «الرواية» والجرح والتعديل للرجال - الرواه - وإنما اشترطوا سلامنة «الدراءة» أيضاً لهذه المرويات التي رواها العدول القساطون عن أمثالهم حتى رسول الله - ﷺ - . أى أن هؤلاء العلماء بالسنة قد اشترطوا «نقد المتن والنحص والمضمون» بعد أن اشترطوا «نقد الرواية والرواة» وذلك حتى يسلم المتن والمضمون من «الشذوذ والعلة

القادحة» ، فلا يكون فيه تعارض حقيقى مع حديث هو أقوى منه سندًا ، وألصق منه بمقاصد الشريعة وعقائد الإسلام ، ومن باب أولى ألا يكون الأثر المروى متناقضًا تناقضًا حقيقاً مع محكم القرآن الكريم ..

ولو أننا طبقنا هذا المنهاج العلمي المحكم ، الذى هو خلاصة علوم السنة النبوية ومصطلح الحديث ، لما كانت هناك هذه المشكلة - القديمة .. التجديدة .. ولكن المشكلة - مشكلة الغلو ، بأنواعه ودرجاته - إما تأتى من الغفلة أو التغافل عن تطبيق قواعد هذا المنهج الذى أبدعته الأمة الإسلامية ، والذى سبقت به حضارتنا كل الحضارات فى ميدان «النقد الخارجى والداخلى للنصوص والمرويات» .. وهذه الغفلة إما تتجلى فى تركيز البعض على «الرواية» مع إهمال «الدرایة» ، أو العكس .. وفى عدم تمييز البعض بين مستويات المرويات ، كأن يطلب من الأحاديث ظنية الثبوت ما هو من اختصاص النصوص قطعية الثبوت .. أو من مثل تحكيم «الهوى» أو «العقل غير الصرير» فى المرويات الصحيحة ، الخالية متونها ومضامينها من الشذوذ والعلة القادحة ..

وهناك ، أيضاً ، آفة الذين لا يميزون بين التوقف إزاء «الرواية والرواة» - وهم يشرّعون غير معصومين ، وفيهم وفي تعديلهم وقبول مروياتهم اختلف الفقهاء وعلماء الحديث والمحدثون - وبين التوقف

إذاء «السنة» التي ثبتت صحة روايتها ودرايتها عن المعموم ، صلى الله عليه وسلم .. فتوقف العلماء المتخصصين - وليس الهواة أو المتطفلين - إذاء «الرواية والرواة» شيء ، والتوقف إذاء «السنة» التي صحت وسلمت من الشذوذ والعلل القادحة شيء آخر .. والأول حق من حقوق علماء هذا الفن ، أما الثاني فهو تكذيب للمعموم ، صلى الله عليه وسلم - والعباذ بالله - . . .

\* \* \*

أما الذين يقولون إننا لا حاجة لنا إلى السنة النبوية ، اكتفاء بالبلاغ القرآني ، الذي لم يفرط في شيء .. فإننا نقول لهم ما قاله الأقدمون - من أسلافنا - للأقدمين - من أسلافهم - .

إن السنة النبوية هي البيان النبوي للبلاغ القرآني ، وهي التطبيق العملي للآيات القرآنية ، التي أشارت إلى فرائض وعبادات وتکاليف وشعائر ومتانس ومعاملات الإسلام .. وهذا التطبيق العملي ، الذي حول القرآن إلى حياة معيشة ، ودولة وأمة ومجتمع ونظام وحضارة ، أي الذي «أقام الدين» ، قد بدأ بتطبيقات الرسول - عليه السلام - للبلاغ القرآني ، ليس تطوعاً ولا تزييناً من الرسول ، وإنما كان قياماً بفرضية إلهية نص عليها القرآن الكريم («وأنزلنا إليك الذكر لتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نَزَّلْ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ») - التحل : ٤٤ - . فالتطبيقات النبوية للقرآن - التي هي السنة العملية والبيان

القولى الشارح والمفسر والمفصل - هى ضرورة قرآنية ، وليس تزييداً على القرآن الكريم .. هي مقتضيات قرآنية ، اقتضاها القرآن .. ويستحيل أن نستغنى عنها بالقرآن ..

وتأسياً بالرسول - ﷺ - وفيما بفرضية طاعته - التي نص عليها القرآن الكريم «أطِيعُوا الله وَالرَّسُول» - آل عمران : ٣٢ - «أطِيعُوا الله وَأطِيعُوا الرَّسُول» - النساء : ٥٩ - «مَن يُطِعِ الرَّسُولْ فَقَدْ أطَاعَ اللَّهَ» - النساء : ٨٠ - «قُلْ إِنَّ كُنْتُمْ تَحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحِبِّكُمُ اللَّهُ» - آل عمران : ٣١ - «إِنَّ الَّذِينَ يَأْيُّعُونَكُمْ إِنَّمَا يَأْيُّعُونَ اللَّهَ» - الفتح : ١٠ ... تأسياً بالرسول - ﷺ - وطاعة له كان تطبيق الأمة - في جيل الصحابة ومن بعده - لهذه العبادات والمعاملات .. فالسنة النبوية ، التي بدأ تدوينها في العهد النبوي ، والتي اكتمل تدوينها وتحقيقها في عصر التابعين وتابعائهم ، ليست إلا التدوين للتطبيقات التي جسدت البلاغ القرآني ديناً معيشًا في العبادات والمعاملات ..

فالقرآن الكريم هو الذي تطلب السنة النبوية ، وليس هي بالأمر الزائد الذي يعني عنه ويستغني دونه القرآن الكريم ..

أما العلاقة الطبيعية بين البلاغ الإلهي - القرآن - وبين التطبيق النبوى لهذا البلاغ الإلهي - السنة النبوية - فهي أشبه ما تكون

بالعلاقة بين «الدستور» وبين «القانون» فالدستور هو مصدر ومرجع القانون . . والقانون هو تفصيل وتطبيق الدستور ، ولا حجة ولا دستورية لقانون يخالف أو ينافس الدستور . . ولا غناه ولا اكتفاء بالدستور عن القانون . .

إن رسول الله - ﷺ - ليس مجرد مبلغ فقط ، فهو ليس «ساعي بريد» . . وإنما هو مبلغ ، ومبين للبلاغ ، ومطبق له ، ومقيم للدين ، تحول القرآن على يديه إلى حياة عملية - أى إلى سنة وطريقة بحياها المسلمين - . .

وإذا كان بيان القرآن وتفسيره وتفصيله هو فريضة إسلامية ، دائمة وقائمة ، على الأمة إلى يوم الدين . . فإن هذه الفريضة قد أقامها - أول من أقامها - حامل البلاغ ، ومنجز البيان ، ومقيم الإسلام ، عليه الصلاة والسلام ..

والذين يتصرّرون أن الرسول - ﷺ - مجرد مبلغ - «واسعى بريد» - إنما يضعونه في صورة أدنى من صورتهم هم ، عندما ينكرون عليه البيان النبوى للبلاغ القرآنى ، بينما يمارسون هم القيام بهذا البيان والتفسير والتطبيق للقرآن الكريم ! . . وهذا «مذهب» يستعيد المؤمن بالله منه ومن أهله ومن الشيطان الرجيم !

## الشَّبَهَةُ السَّادِسَةُ: حَوْلِ عَلَاقَةِ الْعُقْلِ بِالنَّفْلِ

«وَهُم يَعْتَقِدُونَ أَن جَمِيعَ عُلَمَاءِ الْأَمَّةِ بِدُونِ اسْتِشَاءٍ غَيْرِ مُؤْهَلِينَ، لَا نَهُمْ اعْتَمَدُوا عَلَى النَّفْلِ وَلَا التَّفْكِيرِ.. وَأَنَّهُ يَجْبُ التَّفْكِيرُ فِي كُلِّ أُمُورِ الدِّينِ، الْأَصْلُ قَبْلَ الْفَرْعَ.. وَالْغَاءُ كُلِّ الْأَسَاسِيَّاتِ الْمُوجَودَةِ الَّتِي تُعْتَبَرُهَا الْأَمَّةُ مِنَ الْمُسْلِمَاتِ، وَالْبَحْثُ مِنْ جَدِيدٍ عَنِ الْحَقِيقَةِ، مُعْتَمِدِينَ عَلَى الْعُقْلِ فَقَطِّ.. اهـ».

### الجواب:

إن القول بالاعتماد على العقل فقط - أي دون النقل ، الذي هو الوحي الإلهي ، في بلاغه القرآني وبيانه النبوى .. واستخدام العقل وحده أداة لإعادة النظر في كل ما تعتبره الأمة من المسلمات .. هو قول يحتاج إلى ضبط .. وإلى تصويب .. ويمكن أن يتم ذلك من خلال إشارات إلى عدد من الحقائق :

أولها: أن مقام العقل في الإسلام هو مكان عالٌ وفريد ، ولا نظير له في الشرائع السابقة على الشريعة الإسلامية الحائمة .. فالعقل في الإسلام هو مناط التكليف بكل فرائض وأحكام الإسلام .. أي شرط التدين بدين الإسلام ..

وثالثها: أن العقل - فـى الإسلام - هو سبـيل الإيمـان بـوجود الله وـوحدـانيـته وـصفـاته . . لأن الإيمـان بالله سـابـق عـلـى التـصـديـق بالـرسـول وبالـكتـاب الـذـى جـاء به الرـسـول ، لأنـه شـرـط لـهـما ، وـمـقـدـم عـلـيـهـما ، فالـتصـديـق بالـكتـاب - النـقـل - متـوقـف عـلـى صـدـق الرـسـول الـذـى أـتـى به ، والـتصـديـق بالـرسـول متـوقـف عـلـى وجود الإـلـه الـذـى أـرـسـل هـذـا الرـسـول وأـوـحـى إـلـيـه . . وـالـعـقـل هو سـبـيل الإـيمـان بـوجود

الله - سبحانه وتعالى - وذلك عن طريق تأمل وتدبر بديع نظام وانتظام المصنوعات الشاهدة على وجود الصانع المبدع لنظام وانتظام هذه المصنوعات . . فالعقل - في الإسلام - هو أداة الإيمان بجوهر الدين - الألوهية . . وبعبارة الإمام محمد عبده : « . . فأول أساس وضع عليه الإسلام هو النظر العقلى ، والنظر عنده هو وسيلة الإيمان الصحيح ، فقد أقامك منه على سبيل الحجة ، وقادسك إلى العقل ، ومن قادسك إلى حاكم فقد أذعن إلى سلطنته . . . ». (الأعمال الكاملة) ج ٣ ص ٣٠١ . . دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة - طبعة القاهرة - دار الشروق سنة ١٩٩٣م .

وذلك على حين كان العقل غريباً ومستبعداً من سبل الإيمان في حقب الرسائلات السابقة على الإسلام ، . . حقب المعجزات المدهشة للعقل ، عندما كانت الإنسانية في مراحل الطفولة « خرافاً ضالة » ، تؤمن بما يُلْقى إلى قلبها ، دون إعمال عقل ، لأن الإيمان لا يحتاج إلى إعمال عقل . . وفق عبارة القديس والفيلسوف النصراني « أنسيلم » (١٠٣٣-١١٠٩م) .

ورابعها: أن المقابلة بين « العقل » و« النقل » هي أثر من آثار الثنائيات المتناقضة التي تميزت بها المسيرة الفكرية للحضارة الغربية ، تلك التي عرفت لاهو تاكسيماً - نقلأً - لا عقلانياً ، فجاءت عقلانيتها ، في عصر النهضة والتنوير الوضعي العلماني ، ثورة على النقل اللاعقلاني ونقضاً

له . . أما في الإسلام ، والمسيرة الفكرية لحضارته وأمته . . وخاصة في عصر الازدهار والإبداع - فإن النقل لم يكن أبداً مقياً للعقل ، لأن المقابل للعقل هو الجنون ، وليس النقل .. ولأن النقل الإسلامي - القرآن الكريم - هو مصدر العقلانية المؤمنة ، والباعث عليها ، والداعي لاستخدام العقل والتفكير والتدبر في آيات الله المنظورة والمسطورة جمِيعاً .. وأيات القرآن التي تحض على العقل والتعقل تبلغ تسعة وأربعين آية .. والأيات التي تتحدث عن «اللُّبُّ» - بمعنى عقل وجوهر الإنسان - هي ست عشرة آية .. كما يتحدث القرآن عن «النَّهْيِ» - بمعنى العقل - في أيدين .. وعن الفكر والتفكير في ثمانية عشر موضعًا .. وعن الفقه والتفقه - بمعنى العقل والتعقل - في عشرين موضعًا .. وعن «التدبر» في أربع آيات .. وعن «الاعتبار» في سبع آيات .. وعن «الحكمة» في تسعة عشر آية .. وعن «القلب» - كأدأة للفقه والعقل - في مائة واثنين وثلاثين موضعًا .. ناهيك عن آيات العلم والتعلم والعلماء التي تبلغ في القرآن أكثر من ثمانمائة آية .. فالنقل الإسلامي - أي الشرع الإلهي - هو الداعي للتعقل والتدبر والتفقه والتعلم .. والعقل الإنساني هو أداة فقه الشرع ، وشرط ومناط التدين بهذا الشرع الإلهي .. ولذلك ، لا أثر للشرع بدون العقل ، كما أنه لا غنى للعقل عن الشرع ، وخاصة فيما لا يستقبل العقل بإدراكه من أمور الغيب وأحكام الدين .

ذلك أن العقل ، مهما بلغ من العظمة والتألق في الحكمة والإبداع ، هو ملكة من ملكات الإنسان ، وكل ملكات الإنسان - بالخبرة التاريخية والمعاصرة - هي نسبة الإدراك والقدرات ، تحمل اليوم ما تعلمه غداً ، وما يقصره عن عقل الواحد يبلغه عقل الآخر .. وإذا كانت مبادئ عالم الشهادة - النفس والكون .. أى الدنيا - مفتوحة على مصاريعها أمام العقل وأمام التجربة - بالنسبة للإنسان - فإن هناك مبادئ - وخاصة في معارف عالم الغيب - سبيل معرفتها النقل - أى الوحي - والوجدان - القلب والإلهام - فالهدىات التي يهتدى بها الإنسان هي «العقل» و«النقل» و«التجربة» و«الوجدان» .. ولن يست العقل وحده دون سواه .. وتتنوع الهدىات وسبيل المعرفة الإنسانية ، مع تنوع مصادر المعرفة الإنسانية - الوحي وأيات الله المسطورة ، مع الكون وأيات الله المنظورة - تتكامل وتتوازن المعرفة الإنسانية - وهذه هي نظرية المعرفة الإسلامية - بينما يختل توازن هذه المعرفة إذا هي وقفت - في المصادر - عند الكون وعالم الشهادة وحده - وفي الوسائل وإدراك المعرفة عند العقل وحده ، أو العقل والتجربة وحدهما ، دون النقل والوجدان .. ولقد عبر عن هذا التكامل والتوازن في نظرية المعرفة الإسلامية الإمام محمد عبد (١٢٦٥-١٣٢٢ هـ ١٨٤٩-١٩٠٥ م) عندهما تحدث - في تفسيره لآية ﴿اَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيم﴾ - من

سورة الفاتحة - عن «الهدايات الأربع» - العقل ، والنقل ، والتجربة ،  
والوجودان .. كما عبر عن التلازم الضروري بين العقل والنقل ،  
لتكميل المعرفة الإسلامية ، عندما قال : «فالعقل هو ينبع اليقين  
في الإيمان بالله ، وعلمه وقدرته ، والتصديق بالرسالة .. أما النقل ،  
 فهو الينبع فيما بعد ذلك من علم الغيب ، كأحوال الآخرة  
والعبادات .. والقرآن - وهو المعجز الخارق - دعا الإسلام الناس إلى  
النظر فيه بعقولهم .. فهو معجزة عُرضت على العقل ، وعرفته  
القاضي فيها ، وأطلقت له حق النظر في أنحائها ، ونشر ما انطوى  
في أثناها .. وإذا قدرنا عقل البشر قدرة ، وجدنا غاية ما ينتهي  
إليه كما أنه إنما هو الوصول إلى معرفة عوارض بعض الكائنات التي  
تقع تحت الإدراك الإنساني .. أما الوصول إلى كنه حقيقته فمما  
لا تبلغه قوته .. ومن أحوال الحياة الأخرى ما لا يمكن لعقل بشري  
أن يصل إليه وحده .. لهذا كان العقل محتاجاً إلى مُعين يستعين  
به في وسائل السعادة في الدنيا والأخرة .. - (الأعمال الكاملة)

ج ٢ ص ٣٢٥، ٣٧٩، ٣٩٧ ..

فإنما الإسلام لا يعرف - على الإطلاق - هذه الثنائية المتناقضة بين  
العقل والنقل .. وصريح المعمول لا يمكن أن يتعارض مع صحيح  
المنقول .. ولقد عبر الإمام محمد عبد الله عن ما قد يتوجهه البعض  
تعارضاً عندما صاغ حقيقة هذه القضية فقال : «لقد تقرر بين

المسلمين أن الدين إن جاء بشيء قد يعلو على الفهم ، فلا يمكن أن يأتي بما يستحيل عند العقل . ٤ - (الأعمال الكاملة) ج ٢ ص ٢٥٧ . . . ففارق بين ما يعلو على إدراك العقل ، من بعض أمور الدين ، وبين ما يستحيل في العقل - الذي يرى ويقرأ منه الدين . . .

ومن بين علماء الإسلام الذين عبروا - بصدق وعيقرية - عن تكامل العقل والنقل - الحكمة والشريعة - حجة الإسلام أبو حامد الغزالى (٤٥٠-٥٥٨هـ / ١١١١-١٠٥٨م) عندما قال : «إن أهل السنة قد تحققوا أن لا معانة بين الشرع المنقول والحق المعقول ، وعرفوا أن من ظن وجوب الجمود على التقليد واتباع الظواهر ، ما أتوا به إلا من ضعف العقول وقلة البصائر . وأن من تغلل في تصرف العقل حتى صادموا به قواعد الشرع ، ما أتوا به إلا من خبث الصمائر . فمما يوصل إلى التفريط ، ومما هو لاء إلى الإفراط ، وكلاهما بعيد عن الحزم والاحتياط . . . فمثال العقل : البصر السليم عن الآفات والأذاء ، ومثال القرآن : الشمس المنتشرة الضياء ، فأشدّ أن يكون طالب الاهتداء المستغنى إذا استغنى بأحدّها عن الآخر في عمار الأغبياء ، فلا فرق بينه وبين العميان . فالعقل مع الشرع نور على نور . ٥ - (الاقتصاد في الاعتقاد) ص ٢ ، ٣ - طبعة مكتبة صبيح - القاهرة . .

وهذه العلاقة بين العقل والنقل - علاقة التكامل والتأنقى - هي التي أكد عليها أبو الوليد ابن رشد (٥٢٠-١١٢٦هـ / ١١٩٨م) عندما قال : « .. فبأنا ، معاشر المسلمين ، نعلم ، على القطع ، أنه لا يؤدي النظر البرهانى إلى مخالفة ما ورد به الشرع ، فإن الحق لا يصاد بالحق ، بل يوافقه ويشهد له .. فالحكمة هي صاحبة الشريعة ، والأخت الرضيوعة .. وهما المصطحبتان بالطبع ، المتحابتان بالجوهر والغريزة .. ». (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال) ص ٣١ ، ٣٢ ، ٦٧ . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة دار المعارف - القاهرة - سنة ١٩٩٩م .

فالباب مفتوح على مصراعيه أمام العقل في سائر ميادين عالم الشهادة .. وهو سبيل الفقه والفهم والتکلیف في الشرع والدين .. لكن لابد من مؤازرة الشرع والنقل للعقل فيما لا يستقل العقل بإدراكه من أخبار عالم الغيب والحكم والعلل من وراء بعض أحكام العبادات في الدين .. وما قد يبدو من تعارض - عند البعض - أحياناً بين العقل والنقل ، فهو تعارض بين العقل وبين « ظاهر » النقل - وليس حقيقة معنى النقل .. أو مرجعه إلى تخلف « صحة » النقل .. أو تخلف « صراحة » العقل .. أو وجود ما يعلو على الفهم ، لا ما يتعارض مع العقل .. فالعقل مع الشرع - كما قال حجة الإسلام الغزالى - « نور على نور » .. وما الحديث

عن التعارض بينهما إلا أثر من آثار الغلو في أحدهما ، تفريطاً أو إفراطاً . .

وإذا كانت البداهة والخبرة البشرية - و حتى الحكمة الفلسفية - تقول : إن من مبادئ الدين والشرع ما لا يستقل العقل بإدراك كنهه وحقيقة جوهره ، فكيف يجوز لعاقل أن يدعوا إلى تحكيم العقل وحده في كل أساسيات الدين؟! . . لقد قال الفيلسوف الفقيه أبوالوليد ابن رشد - وهو الذي احترم عقلانيته المتألقة الأوروبيون والمسلمون جميعاً . قال عن رأي الفلاسفة القدماء في مبادئ الشرائع التي لا يستقل العقل بإدراكها : «إن الحكماء من الفلاسفة ليس يجوز عندهم التكلم ولا الجدل في مبادئ الشرائع - مثل : هل الله تعالى موجود؟ وهل السعادة موجودة؟ وهل الفضائل موجودة؟ - وفاعل ذلك عندهم محتاج إلى الأدب الشديد ، ولذلك يجب قتل الزنادقة . . فيجب على كل إنسان أن يسلم مبادئ الشرائع ، لأن مبادتها أمور إلهية تفوق العقول الإنسانية ، وكيفية وجودها هو أمر معجز عن إدراك العقول الإنسانية ، فلا بد أن يعترف بها مع جهل أسبابها . .» . (تهافت التهافت) ص ١٢١، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٥ . طبعة القاهرة سنة ١٩٠٣ م . .

فليس هناك عاقل يحكم العقل فيما لا يستقل العقل بإدراكه ، من مبادئ الشرائع والمعجزات ، وكنه وجوه وحقائق المغيبات .

وليس هناك عاقل يغفل أو يتغافل عن مكانة ودور العقل في دين الإسلام ..

وادراك وظيفة العقل .. وميدان عمله .. وحدود قدراته ، هو لب الاحترام للعقل ، وليس فيه انتقاص من سلطانه ، الذي تألق في دين الإسلام وفكرة المسلمين ..

## الشَّبَهَةُ السَّابِعَةُ: حَوْلِ النَّظَامِ الْمَصْرُوفِيِّ الْمُعاَصِرِ

«وَهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّهُ يَجُبُ اتِّبَاعُ النَّظَامِ الْبَنَكِيِّ الْغَرْبِيِّ الْمُبَنَّى عَلَى الرِّبَعِ، أَيْ أَنَّ الْبَنَكَ الْإِسْلَامِيَّةَ، وَخَاصَّةً الْعَقَارِيَّةَ مِنْهَا، يَجُبُ أَنْ تَقْدِمُ الْقَرْوَضُ عَلَى أَسَاسِ اسْتِرْدَادِ هَذِهِ الْأَمْوَالِ مُضَافًا عَلَيْهَا نِسْبَةٌ تَعْطِلُ التَّضْخُمَ الْاِقْتَصَادِيِّ وَنِفَاقَاتٍ تَعْطِلُ خَدْمَاتِ الْبَنَكِ وَنِسْبَةٌ تَابِتَةٌ مِنَ الرِّبَعِ، وَيَدُونُ هَذَا الرِّبَعَ فَبِإِنَّهُ الْبَنَكَ سَتَفْشِلُ. وَيُؤْكِدُونَ عَلَى أَنَّ الْبَنَكَ الْإِسْلَامِيَّةَ فَاشِلَةٌ، وَهِيَ تَعْمَلُ بِنَفْسِ عَمَلِ الْبَنَكِ الرِّبَوِيِّ، وَلَكِنْ بِسَمْعِ أَخْرِيٍّ، مُثْلِّ الْمَرَابِحَةِ أَوْ مَا شَابَهَ ذَلِكَ، وَبِهَذَا يَعْمَمُونَ عَلَى الْبَنَكَ الْإِسْلَامِيَّ صَفَّةَ الْعَشَّ وَالْتَّلَاعِبِ بِصَفَّةِ مَطْلَقَةٍ» اهـ.

### الجواب:

إن موقف الفقه الإسلامي المعاصر من المعاملات المصرفية السائدة في العالم الحديث والمعاصر، قد كتبت فيه العديد من الدراسات، وصدرت حوله العديد من الفتاوى، الفردية والجماعية . . . وهو موقف لا يعمم الحال ولا الحرمة علىسائر المعاملات المصرفية ، وإنما يميز بين ما هو حلال وما هو حرام في هذه المعاملات .

وأغلب الجدل الذي دار ويدور في ساحة الفقه الإسلامي المعاصر قد انصب على الفوائد البنكية المحددة سلفاً ، التي تعطيها المصارف لأصحاب المدخرات ، والتي تأخذها من أصحاب القروض .

ودون دخول في التفاصيل - التي مكانها الدراسات الفقهية المتخصصة - فيحسن - في هذا المقام - التذكير بأصل القضية، للوصول فيها إلى كلمة سواء .

فأولاً: إن هذا النظام المصرفى ، السائد الآن في العالم المعاصر، هو نظام غربى ، نشأ مع النظام الرأسمالى الغربى ، في إطار الحضارة المسيحية الغربية .. ولأن المسيحية - كالإسلام - تحرم الربا - الذي هو في جوهره: مال يثمر مالاً دون عمل - فلقد تخرج المسيحيون الغربيون من إقامة المصارف الربوية .. مع أنها ضرورة من الضرورات الضرورية بالنظام الرأسمالى - الذي هو في جوهره: تعظيم لرأس المال على حساب العمل ..

ولأن اليهود قد حرّقوا موقف اليهودية من الربا ، فجعلوه حراماً فيما بينهم خاصة ، وحالاً مع غيرهم ، فلقد تقدّموا هم فأقاموا المصارف الربوية ، وعملوا بها ، واحترفوا صناعتها ، وبرعوا فيها .. وظلوا كذلك حتى سادت الفلسفة الوضعية العلمانية النفعية - «البرمجيات» - في المجتمعات الغربية ، فتراجعوا حاكمة المعاير المسيحية ، ودخلوا المسيحيون الغربيون هذا الميدان مع اليهود ، ونافسوا لهم فيه ..

وثانياً: إن بلادنا الإسلامية ، وكل حضارات وأمم الجنوب ، لم تعرف هذا النظام المصرفى الربوى إلا عندما جاءتنا - مع النظام الرأسمالى - في ركاب الغزو الاستعمارية الأوروبية الحديثة لبلادنا .. ولذلك ، يجب التمييز بين قدم الممارسات الربوية ، منذ التاريخ القديم والحضارات القديمة وبين هذا النظام المصرفى المعاصر،

الذى نشأ - كنظام سائد وحاكم - مع سيادة الرأسمالية وتحكمها ، والذى «تعولم» مع الغزو الاستعمارية الأوروبية الحديثة .

وثالثاً: فبسبب من كون النظام المصرفي الربوى هو ثمرة من ثمرات النظام الرأسمالى ، وضرورة من ضروراته ، ولازمة من لوازمه - للاشتراك فى فلسفة تعظيم رأس المال على حساب العمل - كان رفض الاقتصاد الاشتراكي والشيوعى لهذا النظام .. لأن الفلسفة الاشتراكية تعظم العمل بدلاً من رأس المال - على عكس الرأسمالية - ولذلك فهو يمنع الربا ، الذى هو : مال يشمر ويجلب ما لا دون عمل .

ورابعاً: إن فلسفة الموقف الإسلامى من المال والنقد تلخص فى أنه مقابل عمل أو سلعة أو خدمة أو منفعة ، وليس المال والنقد - فى ذاته - سلعة تباع وتشترى .. وهذا هو لب الفلسفة الإسلامية التى تحرّم التجارة بالنقد ، وجعل المال يشمر ما لا يدون عمل .. وفي هذا الموقف تتفق الفلسفة الاشتراكية مع فلسفة الإسلام فى التقدّم والأموال .

وخامساً: إن تركيز كل الجدل الفقهي الإسلامي المعاصر - إزاء المعاملات المصرفية - على تحديد العائد من المدخرات أو عدم تحديده ، هو ابتعد عن جوهر القضية ، فقد يكون تحديد العائد تنظيماً يفيد أصحاب المدخرات ، الذين هم الجانب الأضعف فى المعادلة الادخارية ، ويحميهم من ظلم قائم أو محتمل من أرباب المصارف ، الذين يمثلون الجانب الأقوى فى هذه المعادلة .. ومطلوب من الفقه الإسلامي أن يركز على جوهر فلسفة الإسلام فى التقدّم والأموال - أى أن تكون الأموال بدلاً لعمل ، وليس سلعة يتاجر

بها ، فتأتى بأموال - فوائد - دون عمل مضاد .. ولذلك ، فإن النظام المصرفي الإسلامي هو النظام الذي يقيم المصارف ، لا لتناجر في المدخرات ، وإنما لتوظف هذه المدخرات وتشارك بها في التنمية المجتمعية الشاملة ل مختلف الميادين .. فالمصارف الانتاجية - أي التي تشارك بمدخراتها في التنمية - هي المصارف الإسلامية الحقة ، حتى ولو لم تسم نفسها إسلامية .. والمصارف غير الانتاجية ، التي تعمل في إعادة اقراض مدخراتها ، وتعيش على الفروق بين عوائد الاقتراض والإقراض - يصرف النظر عن الأسماء التي تطلقها على هذه العمليات - هي مصارف غير إسلامية ، حتى ولو سمت نفسها إسلامية ..

وفي ضوء هذه الحقيقة نقرأ الفتوى الشهيرة للإمام محمد عبد العظيم التوفيق (صـ ١٢٦٥-١٣٢٣ هـ ١٨٤٩-١٩٥٠ م) بحل عائد مدخرات «صناديق التوفيق» ، لأن صناديق التوفيق كانت مؤسسة حكومية ، تأخذ المدخرات لتبني بها الحكومة مدارس ومصانع ومستشفيات .. فكانت صورة من المصارف الانتاجية ، ولم تكن صورة من مؤسسات التجارة بالنقود والأموال .

وسادساً: إن رؤية المأساة التي وصل إليها النظام الربوي المعاصر ، هي الكفيلة بتبيان عظمة العدل الإسلامي المتجسد في فلسفة الإسلام إزاء النقود والأموال .. فالتضخم - الذي يمثل سلطان النظام المالي الرأسمالي العالمي - هو ثمرة من ثمرات جنون التجارة في النقود والأموال .. والمضاربات الجهنمية على أسعار الأسهم في البورصات العالمية - وهي التي خربت وتخرب الكثير

من التجارب التنموية ، وتهدر عرق الأمم وكدح الشعوب - هي واحدة من الثمرات الحرة للنظام الربوي ، والتجارة في النقود والأموال .. وإذا علمنا أن ٩٧٪ من رأس المال العالمي - أي ١٠٠ تريليون دولار - موظفة في السمرة والمصاربات - أي في الربا والتجارة في النقود .. وأن ٣٪ فقط من رأس المال العالمي - أي ٣٥ تريليون دولار - هي الموظفة في التجارة والصناعة والخدمات .. علمنا أن مأساة الرأسمالية المتوجهة ، ونظامها الربوي ، أبغض وأفظع من قضية تحديد العائد من المدخرات أو عدم تحديده ، تلك التي شغلت وتشغل أطراف الجدل الفقهي حول الموقف الإسلامي من معاملات البنوك! ..

وسبعاً: إذا كان النظام الربوي ثمرة من الثمرات اللصيقة بالنظام الرأسمالي ، وجزءاً من فلسفة الرأسمالية إزاء النقود والأموال ورأس المال .. وإذا كان هذا النظام الرأسمالي - على تفاوت في صور حدته ووحشيته .. هو السائد الآن في كل أنحاء العالم .. فإننا يجب أن ننظر إلى النظام الربوي نظرتنا إلى «التلوث» الذي عم بلاه سائر أرجاء الكوكب الذي عليه نعيش ، فلقد أصبح روحًا ساربة في كل المعاملات .. ونحن بإذانه أمام ضرورة وبلاه عام ، كمثل التلوث الذي أصاب عموم البيئة في عصرنا .. فالتعامل الإسلامي مع هذا الواقع هو التعامل مع الفضورات .. فواجب لا تزييف ديننا فنقول إن هذا النظام المصرفى الربوى حلال .. وفي ذات الوقت لا نغمس عيوننا عن عناصر الضرورة فيه فنطلب من الناس الامتناع عن التعامل مع هذا الواقع

الحاكم لكل الاقتصاديات . . وهذا تأتي قواعد التعامل الإسلامي مع الفضورات ، التي تقدر بقدرها ، والتي تُعامل كفضورات يسعى الناس إلى الخروج من أسبابها وملابساتها وثمراتها ، وليس إلى تكريسها بالرغم أنها هي الطبيعية والقاعدة والحلال . . وكذلك تأتي قاعدة تنزيل الحاجة الشديدة والملاسة منزلة الفضورة . .

وهنا - أيضاً - تأتي أهمية البنوك الإسلامية ، التي وإن لم تستطع النجاة من «التلويت الربوي» السائد عالمياً إلا أن وجودها وأدبياتها تعلن الرفض لقبول وتأييد هذا النظام . .

وثامناً: إن إدانة النظام المصرفى الربوى فريضة من فرائض الفقه الإسلامي المعاصر . . وإن بعث تراثنا فى فلسفة الإسلام إزاء الأموال والنقود - بدءاً بما كتبه حجة الإسلام أبو حامد الغزالى (٤٥٠-٥٥٥هـ) في كتاب (إحياء علوم الدين) عندما قال: «القد خلق الله الدنانير والدرارم حاكمين ومتوسطين بين سائر الأموال ، حتى تقدر الأموال بهما . . خلقهما للتداولهما الأيدي . . وللتوصل بهما إلى سائر الأشياء . . ولا غرض في أعيانهما . . بل هما وسيلة إلى كل غرض . . وكل من عمل فيهما عملاً لا يليق بالحكم ، بل يخالف الغرض المقصود بالحكم ، فقد كفر نعمة الله فيهما . فمن كثراهم فقد ظلمهما ، وأبطل الحكمة فيهما . . وكل من عامل معاملة الربا على الدرارم والدنانير فقد كفر النعمة وظلم ، لأنهما خلقا لغيرهما لا لنفسهما ، إذ لا غرض في عينهما . . وأما من معه نقد ، فلو جاز له أن يبيعه بالنقد ، فيتخد التعامل على النقد غاية عمله ، فيبقى النقد مقيداً عنده ، وينزل منزلة المكنوز . . فلا معنى لبيع النقد بالنقد إلا اتخاذ النقد مقصوداً للادخار ، وهو ظلم . .

فكل ما خلق لحكمة فلا ينبغي أن يصرف عنها» - ج ١٢ ص ٢٢٢٠ ، ٢٢٢١ - كتاب الصبر والشكر - طبعة دار الشعب - القاهرة - .

إن بعث هذا التراث - منذ الغزالي وحتى الاجتهادات الحديثة والمعاصرة - واجب من واجبات العقل المسلم المعاصر . . لكن هذا شيء ، وتحويل فلسفة الإسلام في الأموال إلى مودح قائم في أرض الواقع شيء آخر .. وإن قيام عشرات - بيل ومنات - البنوك الإسلامية لن يغير واقع «التلوث الربوي» ، الذي هو جزء عصوٍ من النظام الرأسمالي الحاكم للعالم بأسره .. وكما اضطرت منظومة البلاد الاشتراكية - قبل انهيارها - إلى التعامل بالربا - في الميادلات العالمية - رغم رفضها له وثورتها على فلسفته .. فستظل البلاد الإسلامية - بما فيها البنوك الإسلامية - مضطرة لاستنشاق هذا «التلوث الربوي» ، حتى ولو أطلقت عليه أسماء أخرى! .. وستبقى المفارقة المضحكة في موقف دعوة البنوك الإسلامية المناصرين - في ذات الوقت - للنظام الرأسمالي ، دون إدراك أن الرأسمالية هي الأب الشرعي للربا الذي يحاربون! ..

أما السبيل إلى الخروج من هنا «الجحور المالي العالمي» ، فهو تحول العالم الإسلامي - بالتكامل الاقتصادي .. والسوق الاقتصادية المشتركة .. والاعتماد المتبدال - إلى كتلة اقتصادية متحدة ، وعندئذ يمكن لنا أن نقول للأخرين : إن لنا فلسفة متميزة في النقود والأموال يجب مراعاتها في التعامل معنا .. فالمطلوب أن نتجاوز ، نحن المسلمين ، النظام الاقتصادي الذي أثمر ويشمر النظام المصرفي الربوي ، وأن تكون من القوة بحيث يتعامل معنا الآخرون وفق

## فلسفتنا في النقود والأموال ..

وإذا كان عقلاً الغرب يشكون من الكوارث الدورية للنظام الرأسمالي .. وإذا كان من هؤلاء العقلاً من يلتفت الآن إلى النظام الإسلامي الاربوي .. فإن الوحدة الاقتصادية للعالم الإسلامي ، وتطبيق المسلمين لفلسفة إسلامهم في النقود والأموال ، سيلفت انتظار العالم أكثر وأكثر إلى هذا النظام الاربوي ..

نعم .. هو طريق شاق .. وطويل .. لكنه - وحده - هو الطريق .. طريق تهضمة المسلمين بالإسلام وإبلاغ دعوته إلى العالمين ، وازالة الشبهة عن هذه الدعوة ، وإقامة حجة الإسلام على العالمين ..

أما الاستسلام لطاغوت الرأسمالية المتوجهة ، والتسليم بالنظام المصرفى الرأسمالى ، الذى عولم «التلوث الربوى» ، فهو يأس وقنوط من ظهور الإسلام على الدين كله ، ومن ظهور الحلول الإسلامية لمشكلات الإنسانية على غيرها من الحلول .. وهو يأس وقنوط لا يليقان بالمؤمنين ! ..

أما التخندق الفكرى حول تحديد أو عدم تحديد سعر العائد من مدخلات البنوك ، فهو أشبه ما يكون باحتضان ظل فرع الشجرة بحسبانه الشجرة وما فيها من فروع .. وهو وهم نتمنى أن يبراً منه أهله ، إن شاء الله ..

## المؤلفات

- ١ - الصحوة الإسلامية في عيون غربية .
- ٢ - الغرب والإسلام .
- ٣ - أبو حيان التوحيدي .
- ٤ - دراسة فرائية في فقه التجدد الحضاري .
- ٥ - ابن رشد بين الغرب والإسلام .
- ٦ - الانتماء الثقافي .
- ٧ - تنصير العالم .
- ٨ - التعبدية الرؤية الإسلامية والتحديات .
- ٩ - صراع القيم بين الغرب والإسلام .
- ١٠ - د. يوسف القرضاوي : المدرسة الفكريّة . والمشروع الفكري .
- ١١ - تأملات في التفسير الحضاري للقرآن الكريم .
- ١٢ - عندما دخلت مصر في دين الله .
- ١٣ - الحركات الإسلامية رؤية نقدية .
- ١٤ - المنهاج العقلي .
- ١٥ - النموذج الثقافي .
- ١٦ - منهجية التغيير بين النظرية والتطبيق .
- ١٧ - تجديد الدنيا بتجديد الدين .
- ١٨ - الشوابات والتغibrات في البيقة الإسلامية الحديثة .
- ١٩ - نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم .
- ٢٠ - التقدم والإصلاح بالتنوير العربي .
- ٢١ - فكر حركة الاستنارة ... وتناقضاته .

- ٢٢ - حرية التعبير في الغرب من سلمان  
رشدي إلى روجيه جارودي .
- ٢٣ - إسلامية الصراع حول القدس وفلسطين .
- ٢٤ - الحضارات العالمية تدافع؟... أم صراع؟
- ٢٥ - التنمية الاجتماعية بالغرب؟... أم بالإسلام؟
- ٢٦ - الحملة الفرنسية في الميزان .
- ٢٧ - الإسلام في عيون غربية . . .
- دراسات سويسرية
- ٢٨ - الأقليلات الدينية والقومية تنوع  
ووحدة . . . أم تقسيت واحتراف .
- ٢٩ - ميراث المرأة وقضية المساواة .
- ٣٠ - نفقه المرأة وقضية المساواة .
- ٣١ - الدين والتراث والحداثة والتنمية والحرية  
ـ مخاطر العولمة على الهوية الثقافية
- ٣٢ - الغناء، والموسيقى حلال أم حرام
- ٣٣ - صورة العرب في أمريكا . . .
- ٣٤ - هل المسلمون أمة واحدة . . .
- ٣٥ - السنة والبدعة .
- ٣٦ - الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان .
- ٣٧ - قضية المرأة بين التحرير والتمركز حول الأنثى .
- ٣٨ - مركبة الإسلام .
- ٤٠ - الإسلام كما تؤمن به . . . ضوابط وملامح .
- ٤١ - صورة الإسلام في التراث العربي .
- ٤٢ - تحليل الواقع منهج العاهات المؤمنة .
- ٤٣ - القدس بين اليهودية والإسلام .
- ٤٤ - مأذق المسيحية والعلمانية في أوروبا  
(شهادة ألمانية)

- ٤٥ - الآثار التربوية للعبادات في الروح والأخلاق .
- ٤٦ - الآثار التربوية للعبادات في العقل والجسد .
- ٤٧ - السنة النبوية والمعرفة الإنسانية .
- ٤٨ - نظارات حضارية في القصص القرآني
- ٤٩ - الحوار بين الإسلاميين والعلمانيين
- ٥٠ - الإعلان الإسلامي لحقوق الإنسان
- ٥١ - عن القرآن الكريم
- ٥٢ - في فقه الأقليات المسلمة
- ٥٣ - مستقبلنا بين العالمية الإسلامية والعزلة الغربية
- ٥٤ - مركبة التاريخ
- ٥٥ - نقل الأعضاء في ضوء الشريعة والقانون
- ٥٦ - السنة التشريعية وغير التشريعية
- ٥٧ - شبهات حول الإسلام

## الفهرس

٣	تقديم
٧	الشبهة الأولى: حول حفظ القرآن الكريم .
١٧	الشبهة الثانية: حول تاريخية أحكام القرآن .
٢٧	الشبهة الثالثة: حول حروف فواع بعض السور القرآنية .
٣٤	الشبهة الرابعة: حول عصمة الرسول ﷺ .
٤١	الشبهة الخامسة: التشكيك في الأحاديث .
٤٧	الشبهة السادسة: حول علاقة العقل بالتقليل .
٥٧	الشبهة السابعة: حول النظام المصرفى المعاصر .



للمطبعة والنشر والتوزيع

نهضة مصر

لله ولد محمد بن الحسين بن علي

إلى القارئ العزيز

فى هذه السلسلة الجديدة :

إذا كان «التبشير الغربي» هو تبشير علماني، يستبدل العقل بالدين،  
ويقيم قطعة مع التراث ..

فإن «التبشير الإسلامي» هو تبشير إلهي، لأن الله والقرآن والرسول  
صلى الله عليه وسلم: أنوار، تصنع للمسلم تبشيرًا إسلاميًّا متميًّا.  
ولتقديم هذا التبشير الإسلامي للقراء، **تصدر هذه السلسلة**، التي  
يسهم فيها أعلام التجديد الإسلامي المعاصر :

- د. محمد عمارة
- د. حسن الشافعى
- د. محمد سليم العرا
- أ. فهيمى هربىدى
- د. جمال الدين عطية
- د. سيد دسوقي
- د. كمال الدين إمام

وغيرهم من المفكرين الإسلاميين ..

إنه مشروع طموح، لإنارة العقل بأنوار الإسلام.

الفائز

